شاكر الأنباري

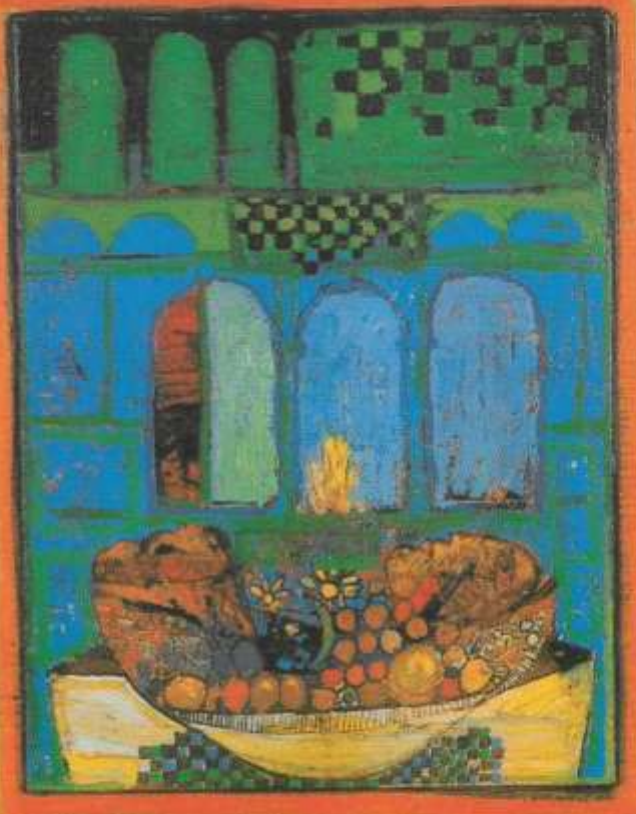

تشكيل شاهد

شاكر الأنباري

شكيل شامي

روائي

منشـــورات

Author : Shaker Al-Anbari
Title : Sham's Formation
Al-Mada : Publishing Company
First Edition 1997
Copyright © Al-Mada
اسم المـــؤلف : شاكر الانباري
عنوان الكتـاب : تشكيل شامي
النـاشـــــر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٧
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria . P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon. Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

المقدمة

في القرية التي ولدتُ فيها، تتمظهرالاشياء في الحواس، لوناً وطعماً ورائحة وكتلا. بل حتى الافكار تتجسد بمادة ملموسة وتلبس هيئةَ ما يُشاهد كل يوم. الألوان مهرجان لا يحد، متعددة، متدرجة، متمازجة. الاخضر الغامق لون سعف النخيل. حين تغيم السماء وتختفي الشمس يصبح اللون قريباً من الأزرق، لون نهر الفرات، في الصيف. وحين يصفو الماء ويشف يكون ازرقَ. وتتحول قوافعه وحصاه ورماله الى نقود يتبادلها الأطفال فيما بينهم. بعد ان يبنوا بيوتا من الرمل. في الشتاء اصفرٌ غامقا. وحين تختفي الشمس يتحول اللون الى الأسود. الرمال على شاطئ الفرات ذات لون رمادي، اما الرمل الرطب فهو يميل الى السواد. الرمادي يتجلّى ايضا في الفحم المحترق وكناسة التنور الذي تستخدمه امي ثلاث مرات يومياً وتلقمه سعف النخيل والعروق الغليظة وروث البقر. القمح في صيراته اصفر. ان لم يخالطه الزؤان والدنوسر والشعير. وكثيرا ما شبّهه الفلاحون بالذهب، تعبيراً عن صفاء المحصول. والحقول الممتدة بين صحراء الجزيرة والنهر، في الأرض المدعوة حوض

الفرات، تتحول الى سجادة حقيقية فيها الزهور من كل لون ورائحة، مثلما تتباين الاوراق ايضا والثمار والعين. في كل ذلك، تنظر وتتأمل، والذهن يختزن الصورة والرائحة والشكل. وَرَقة القمح مدببة طويلة ورفيعة، سعف النخيل خوصه يتفرع الى الجانبين بتناسق ودقّة، سعف القاعدة أخشن من سعف القلب. وهذا الاخير اكثر رهافة ونعومة مع اختلاطه بهدب أشقر، مثل زغب الوليد. حوض مضخة الماء دائري. وبيت الخال مربع. ومخزن الحطب مخروطي ومخلب قطة البيت مدبب. معقوف النهاية.

أثر الطريق بين الحقول عادة ما يكون ابيض من كثرة ما طرقته الأرجل الحافية. وجوه الفلاحين عميقة السمرة، في الصيف. وتميل الى الزرقة حين يطل الشتاء وتهبّ الريح الشمالية. الجافة جفاف حصى الصحراء. ثياب الفتيات مبهرجة. الأحمر والأزرق والاصفر، بأسماء أقمشة محليّة. يراها الرائي من بعيد. وفي أوقات الحصاد وقصّ التمر والعمل في الحقول. كانت تلك الألوان ترقّش الأرض كما لوكانت مزهرية عملاقة. في حين تبدأ المرأة التي تجاوزتْ الأربعين بارتداء الملابس الداكنة، الاسود والبني والرمادي، خوف ان يُظن انها منصابية. وتلك التي تتجاوز هذه القاعدة لابد ان تصبح حديث الناس. همست البنت الصغيرة لأمها، جدتي تحنّي شعرها. فبادلتها الأم الهمس ذاته. قائلة: انها تبحث عن رجل.

ومع بداية الربيع، منتصف شباط، يغمق شجر الصفصاف، على السواقي. ومع مضي الايام يفتح لون الساق والاغصان ليصبح أخضر داكنا. تظل الصفصافة هكذا طوال فصل الصيف ثم تبدأ بالشحوب ويدبّ في الورق الصفار الى ان تصنع بمرور الوقت سجادة

صفراء على ضفاف السواقي. دخان مضخات الماء، المنصوبة على النهر، اسود في بداية التشغيل، وما ان تمرَّ هنيهات حتى يتحول الى الكحلي، ومن ثم يصفو قليلا قليلا ليصير دخانيا يكاد لا يُرى.

الأرض المكروبة ثوا سوداء، ما ان تتعرض الى الضوء حتى يفتح لونها قليلا ثم تتحول التربة الى الرمادي، عظام الخيول النافقة والحمير والبقر بيضاء، قبور الاجداد صحراوية المظهر، نَفَلُ الشاي قرمزي داكن، عباءة المختار عميقة السواد ولحيته حليبية، العكاز الذي يستند عليه مصنوع من خشب التوت، املس.. فهوائي.. مخدد.. وحين تغرب الشمس، تحترق غابة النخيل البعيدة، وتتصاعد منها غيوم سود سرعان ما تختفي مع الشفق، تحت ذلك الحريق ظلال غامقة، يخترقها الضوء بصعوبة، وفي الليالي المظلمة، حين يستيقظ الفلاحون لاعداد السحور، يوقدون موافدهم امام البيوت لطبخ الرز، وقلي التمور الخستاوية، عندئذ تتحول تلك الرقعة الشاسعة ببيوتها ونخيلها وأبقارها ودروبها الى سماء تتلاهث فيها النجوم، عشرات النجوم المتأججة، بألسنه لهبها المتلظية، النار نجمة، واليد كوكب، والنيزك دمعة ساقطة.

يندفع صياد السمك بقاربه الأخضر في المياه الخابطة، النبنية، نحو الشبكة التي لايبرز منها سوى طوّافاتها البيض، يروح يلمّ السمك، الشبّوط رمادي ببطن ابيض والبنيّ تخالطه مَشَحات من الفرمز واليزّ والجرّي بلون القهوة غير المحمّصة، فم الجري شق طويل، وفم الشبوط مدور احمر.

كان جدّي يشبّه نار القيامة بجمر التوت لكن حجمها يعادل مليون مرة حجم جمراتنا الأرضية، نتذكر هذا القول الحكيم كلما

مشينا حفاة على الرمل المتوهج صيفا، ذاهبين الى النهر كي نبلّ اجسادنا. والسراط المستقيم مثل شفرة الحلاقة. على المرء اجتيازه دون السقوط في النار. وفي الغروب، حين تسقط الشمس خلف غابة النخيل، ويقف المرء على السدة الترابية العالية، مشرفا على القرية، يرى شيئا اشبه بالسحر. فوق ذرى السعف والاشجار، التاج الهائل من الخضرة، غيمة فسيحة من الدخان المخضرّ اللون، يترسب في الفراغات بين الورق وبين الخوص، ويفترش ببطء، مساحة السماء. أسراب البعوض كتل سود هلامية، تأخذ شكل كرة مرة ومرة شكل سرب من الزرازير او الوز، رافصة، آزة، عابثة. العيون تنظر حيرى، والوجوه يملؤها العجب. ثم فوق الكل تلك السماء العميقة الزرقة، التي تعتم لحظة بعد لحظة، الى ان يضيء القمر ويختفي كل شئ في غيهب الحلم الارضي. عندئذ تخرج المخلوقات النارية من مكامنها، الطويل والاملس، القصير والضخم، الخشن الشعر والواسع العينين. المخلوقات التي تخترق الجدران نحو الغرف وتخيف البشر أو تلوّث احلامهم بالكوابيس.

كان عالما مدهشا ذاك الذي ترعرعت فيه، كان غنيا بألوانه وأشكاله. لكنه لم يكن هكذا في ذلك الوقت. كان عالما مألوفا، لأنني أعيشه وأراه وأتنفسه، آكله والعب معه كل يوم. الا انه احيانا مؤذ. وشائك ومريع، يود المرء مفارقته. رغم ان المضي الى مضخة المياه فجرا والشمس تندفع ببطء الى السماء والندى في العاقول والشوك، له جمالية خاصة، الا انني كثيرا ما افتقدت دفء الفراش الذي كان ابي يجرّني منه جرا، كي امضي الى العمل، ورغم جمال الليل في القرية، حيث النجوم مثل فوانيس تزيح عجينة الظلام، مع

ذلك. فالقلوب تنبض بالخوف من الكائنات الدنيا والحيوانات الضارية واللصوص. أما مشهد الحقول تحت شمس ظهيرة تموز فقد كان يحمل قدسية هائلة. السكون المطلق. والصفرة الطاغية على الارض. والسلام الذي يتغلغل في الجذور والسعد والتراب. ويطلي الطرفات بطبقة من الفراغ. لكن لا يمكن تخيل الرهبة التي دأبت على مخالطة النفوس وهي تفكر بالمشي تحت ظلال تلك النار لقضاء حاجة ما. سنا التنور حارق. وتأبير سعف النخيل واخر. وتنظيف ساقية المياه مرهق. البعوض لاسع والطين يشقق الجلد والرمال تولد الحكّة.

تلك هي المادة الأولية التي تأبّدتْ في روحي. سافرتْ معي في المدن. قطعتْ الجبال. تشردتْ. عبرتْ البحار. ركبتْ الطائرات. وكادت ان تختفي. تحت ضغط شوارع جديدة وعمارات وواجهات زجاجية. عابات وسيارات وشخوص يتكلمون لغات غير لغتي. ونساء وأطفال. كنت سببا لمجيئهم الى هذه الأرض.

وتلك لوحات مرسومة في الذهن. دون فرش وأحبار ودهون ملونة. دون عبث عقل بشري. أو لعبه. رُسمتْ منذ ان خُلقتُ وفتحتْ عيني على الدنيا. والى ان بلغت الثامنة والعشرين لم ادخل معرضا للرسم. ولم تكن بي حاجة روحية لأفعل ذلك. فالأشياء الجميلة كنت اجدها فيما حولي. ولم اكن اتخيل انهم يضعونها في غرف مغلقة. تُسلّط عليها الاضواء.

ظل الأمر هكذا حتى استقراري في مدينة كوبنهاغن. عاصمة الدنمارك. فيما اطلقت عليه مع نفسي زمن المنفى. او الاغتراب. او الاسترخاء الروحي والجسدي. بعد الحروب والمعارك. والهروب.

والسفر. وقلق الأستقرار في مكان آمن. حقا. اختفت كثير من الأحداث والأشخاص والأمكنة من الذاكرة. وعلى رأسها تلك التفاصيل. للقرية الصغيرة المنزوية بخوف على نهر الفرات. شحبت الألوان وتناءت الروائح وأرتدت الأشكال عباءات حلمية لم تعد تجسّد واقعا بعينه. وجدت نفسي أمام ركام هائل من خرائب الماضي. اشتعل الرأس شيبا وناء الوجه بتعابير القلق والشك والآلام. راحت الحكمة تتسلل الى الجسد تسلل لص محترف. كما دخلت الكائنات المرعبة الى فماقمها. أو كهوفها. وأزاحت رعبها من النفس ملايين المصابيح والكلمات والتجارب الصغيرة والمحاججات. الا ان كل ذكرى. من تلك التفاصيل. كانت تجلب الراحة الى نفسي. والذكرى التي تنبعث بسبب ما. كإن يكون طعما او رائحة او لونا. بل وشكل غامض. بعض الاحيان.

وجدت في الرسم احدى المهيّجات الكبرى لذاكرتي.

كنت أتسلل بعد عناء الوحدة والملل واللاهدفية الى متحف من متاحف كوبنهاغن. كي أتملّى في لوحات كلاسيكية مرسومة منذ قرون. معلقة على الجدران. تحيطها سكينة مطلقة. فنانون لم اسمع قبلا بأسمائهم. كنت اقف امام لوحاتهم مدهوشا. مسحورا. أغلب تلك اللوحات تُجسّد مشاهد طبيعية تكاد تقترب في جمالها من المثال. من المطلق. ليس فيها أي تفصيل ينمّ عن بشاعة. الالوان متناغمة. والظلال ترافص الضوء بدقة اعجازية. والزمن يدوّم في البيوت ووجوه البشر. الحيوانات والطيور. مشاهد من ريف ايطاليا. من الدنمارك. من فصور الارستقراطية الانكليزية. من سهوب روسيا. من شواطئ المتوسط المضيئة. اضافة الى جلسات

الخمرة في الخانات والبانسيونات وامام البيوت. حيث تظهر بعض اللوحات كؤوس الخمرة. وصيادي الطيور والارانب مع كلابهم. وحمامات عصر النهضة. حيث النساء عاريات. اجسادهن مليئة بالتكويرات. ثمة احساس غريب كنت ازخر به بعد خروجي من تلك المتاحف. مزيج هو من الراحة والتوازن الداخلي والأنسجام الروحي. والفرح. فرح بجمال الحياة. الأنسان والاشياء. وهي ينبغي ان تعاش. حتى آخر لحظة منها. كنت اعيش الصفاء بعمق. ذلك الصفاء الذي يجعل الشخص يتأمل حياته الماضية برويّة وحيادية. وشيئا فشيئا. قادني هذا الصفاء والفرح الى التمتع برؤية الفن التشكيلي. فرحت ادخل صالات العرض بلهفة. وأقرأ بمتعة عن اللون والمفردة التشكيلية والكتل والنظريات الفنية والمدارس. بالترافق مع تتبع لجديد لما يُعرض في كوبنهاغن.

كانت الألوان توحي لي بالكثير. تفتح لي افقا غافيا في داخلي. اما اذا كانت مشغولة بعناية فتشعرني بالتسامي. والأرتفاع عن الأرض أشبارا. كانت اللوحات تلفّعني بالمكان. تجسّد تفاصيله. الوانه. اشكاله. والمكان يوحي لي بالقصص. التي ظلت هاجسي. طوال عشر سنوات. تدخل اللوحة في خيالي فتبعث معها حكايات ماضية او حكايات محتملة الحدوث. اللوحة مكان اضافي وسّع أمامي مدينة كوبنهاغن في كل الاتجاهات. بتنوعه واختلاف تضاريسه وحساسيته. خاصة وأنني كنت أطّلعُ على تجارب فنانين من قارات العالم أجمع. امريكا وافريقيا وأسيا وأوربا. ومن كل ذلك كنت المس مايُسمّى بالهوية. المصنوعة من الضوء والأشكال والرؤى والاساطيرداخل اللوحة. لوحة اميركا اللاتينية رافصة. مرقّشة

بالبشر. لوحة اوربا معتمة. لوحة الشرق حائرة. لوحة الهند اسطورية. ولوحة افريقيا سوريالية. عفوية. لايخفى طابعها الزنوجي. هذا رغم ان كثيرا من الفنانين لايؤمن بقضية الهوية. ويعتبر ان الفن لغة عالمية لاتنتمي الى مكان. لكن يبقى. وحسب مشاهداتي. قضية ان اللوحة يصنعها انسان بذاته. عاش في مكان معين له اصاءته الخاصة. وحكاياته المدهشة واشكاله. ودينه ورؤيته واحلامه. وجسده النامّ عن الانبساط او الانقباض. الاسترخاء او التوتر. القلق او البهجة.

نبقى اللوحة. و في كل الاحوال. خلية حضارية مليئة بالجينات. ولا يمكن لخليتين ان تتشابها.

واذا باللوحة مادة جاهزة لي. مادة لغوية يمكن تحويل مفرداتها الى نص. يأتي احيانا فصة واحيانا نصا مفتوحا واحيانا حوارية. بل ويمكن الاستفادة منها في الرواية ايضا. في حال انسجامها مع بنية النص الروائي. وهذا مافعلته في روايتي ألْواح. اذ استوحيت من لوحتين لنذير نبعة مقطعا من مقاطع الرواية. كنت مقتنعا انهما يتناغمان مع الجو الروائي والحدث عموما. فكثير من اللوحات تمنحني حرية السرد. وتعدد الايقاعات اللغوية والطبقات الابحائية. كما انها تساعد اللغة على التجسّد. مثلما يساعد اللون الفكرة على التمظهر امام العين.

بعد عشر سنوات من العيش في مكان جديد. لم يدخل روحي بعمق لأنني لم احس يوما بأنتمائي اليه. شعرت بحنين الى مكان شرقي. يتناغم مع تكويني الحصاري. فكانت الشام مألا. الشام بضوئها الباهر. جوامعها ذات المنائر البيض. نسائها السمر السود

العيون. هوائها الدافئ وبشرها الذي انا به شبيه. الحارات. الجبال. الغابات. الطيور. الظلال والأزياء والخيالات والاساطير والكهوف والايقونات والرهبان واللغات القديمة والرمال. الجمال والانهار والاسماك والاحلام. فمن يستطيع ان يلخّص لي كل ذلك. او يقدمه لي جاهزا لأتمثله مرة واحدة. بعد هذي القطيعة؟انها اللوحة. التشكيل الشامي بنوافذه الألف التي تطل على عشرات المشاهد والكوى.

هذه البانوراما اللونية المتغامزة في الليل. ليل دمشق. كانت البحر الذي يأخذ المشاهد الى دواخله. يعبر به الجزر ويفتضّ القارات. ويسبح به في الاقاصي. كانت الملاحظة الاولى لي على التجارب التشكيلية التي قُيّض لي مشاهدتها. تركيزها على المكان. على الهوية الشرقية بعمقها التاريخي. والحركة اليومية للحياة. والطفولة والفولكلور والطبيعة. سواء بالضوء والظل او بالاشكال المجسدة. او المفردات الحضارية. وهذا ما افتقدته حصراً. بعد السنوات العشر من اقامتي في الدنمارك. وشعرت انه راح يؤثر على كتابتي القصصية والروائية بشكل ما. بدأت اشتغل على اللوحة. على هذا الاساس. اضعها امامي. اتأملها. اسجل في الذهن ماتوحيه لي. وانقل ذلك الايحاء الى الورقة. أدخل في خارطة اللون واتمشى بين الأخضر والاحمر والتركوازي والاصفر والاسود كما لو كنت في حقل مفتوح على الريح. اتقمص جوهر الاشكال واسمعها وهي تتحاور فيما بينها ثم انقل حواراتها الى الورقة. سمعت حوار الوردة والنحلة. والمئذنة للمئذنة. حوار القوس للقوس والجدار للجدار واللوحة لشخوصها والسمكة للنهر. سمعت ذلك ووعيته وأصبحت

روحا هائمة في تضاريس الألوان والخطوط والبقع والمساحات. بعض اللوحات نقلتني الى جو روحي واخرى الى سوريالي وثالثة الى حدث فأصبحت قصة. ورابعة جرّتني الى الذاكرة القديمة في قريتي. ورأيتني طفلا يتسلق نخلة للبحث عن أعشاش اليمام. وخامسة سافرت بي الى داخلي المختزن لملايين السنين. منذ انبثاق الأنسان على هذا الكوكب.

بعض اللوحات هجست انها تخدم قصة دارت في ذهني فأدخلتها الى نسيج الحدث. البعض الآخر امدتني بالمفتاح لكتابة نص مفتوح. لاهو بالقصة ولا هو بالخاطرة. كل ذلك يترافق طبعا. مع دخولي في المكان عبانا. وسياحتي الدائمة في القصور العتيقة والاماكن الاثرية والازقة الشعبية. كان الدليل. فاتح المدرس. خليل عكاري. غازي الخالدي. جبر علوان الذي رسم امرأة دمشقية عشرات المرات دون ان يكل. تختفي الملامح والجسد واحد. ذلك الجسد الانثوي الذي لم يقدر على امساكه. كما لم اقدر أنا ايضا. وليد الأغا. ممدوح قشلان. حسين حمزة. علي سليمان. محمد وهبي. عبد المنان شما. عبد القادر عبدلّي. نوال السعدون. عباس الكاظم. محمد غنوم. عز الدين شموط. احمد ابراهيم. خزيمة علواني. المفتون بالأحصنة. والاخوان بشير ونعمة بدوي. والمصور الفوتوغرافي علي محمد رشيد. الذي رصد بعدسته دمشق القديمة ذات الاقواس والرازونات والجدران المنقوشة والابواب الخشبية والحمام المتخفي في ابراج الجوامع والكنائس ولعبة الضوء والظل في تضاريس الأرض. كنت وأياه. نسيح في دمشق القديمة كي نقتنص وجها يطل من رازونة او شباكا مجللا بالورود الدمشقية. أو

نتملى في حائط بانت احشاؤه وأرتسمت آثار السنين على ملاطه وقرميده وخشبه. وبعض الادلاّء لم أرهم عيانا. سوى انني رأيت ارواحهم في ما أبدعوه من أعمال.

والآن هل سيحس القارىء بالنكهة الشامية في ما يقرأ من نصوص؟هل يرى اللون ويشم رائحة الاشياء ويسمع حفيف الورق في غابه او يطل على صناديق إمرأة مقفله. تراكمت فيها اللقي وعناقيد الخرز والطقوس والهذيانات والأوهام والاحجار الكريمة ومنمنمات الذهب والبخور. طوال قرون من الكيد والحجب والتنكيل؟

سؤال يظل مفتوحا. اجابته رقصة لا تنقيد بضوابط او قواعد مسبقة. دُوزنتُ بهاجس التجريب والمغامرة والبحث عن افق. في اللغة. في رفع الحدود بين فن وآخر. في نزع اللجام عن تدفق الذهن بشطحاته وخبالاته. بعيدا عن الهموم الكبيرة التي جرفتني بإيقاعاتها قبلئذ. كهموم الحرب والمنفى واللاستقرار والطفولة البعيدة. رقصة لا يمكن لها الا ان تجري في الفسحة الصغيرة. المحصورة. بين ذلك القارئ. الذي اجهله ويجهلني. وبيني أنا. الانسان أولا. والكاتب ثانيا.

حديقة عشتار

هذا هو البيت. استدلت عليه، رغم مرور فترة طويلة على الزيارة الاخيرة، كانا وقتها، سوية، هو وهي. وكان الفصل بداية الشتاء. الباب الخشبي المحاط بالبلاط الابيض والاسود، الموشح بفسحات وردية، والفانوسان المثبتان في اعلى الباب، المسكة النحاسية، والمطرقة التي كان كثيرا ما يلهو بها مثل طفل صغير. لابد ان تكون لمساته منطبعة لما تزل على النحاس، على البلاط، على العروق المرمرية الحمراء. مدت يدها وتلمست الوجوه الصقيلة للرخام، وعاشت لحظة من العياب، غياب جسد يضم آخر بنشوة العناق. فوق الباب سالت أمطار الشتاء، وانعكست على النحاس غيوم المساء، وداعبت الريح الباردة مفاصل الدرفتين. الازقة فادت خطواته مرارا لبدخل البيت، وحده بعد تلك القطيعة. عم كان يبحث، ما الذي يؤرقه كي يدمن زيارة البيت وحده، وما هي الكنوز المخبأة وراء الجدران، التي تشعل فيه فضولا مثل ذاك؟ اين غاب، لاتدري، حياته يكتنفها الغموض، مثل لوحة ملبنة بالرموز والاشكال والبقع المضيئة او الداكنة، حياة انسان بأبعاد يصعب تأطيرها.

اول ماجابهها، بعد دخولها البيت، رقعة صفراء القتها اشعة الشمس وهي في سبيلها الى الغروب. هذا هو المدخل. الثريا معلقة في السقف، من خشب بنيّ. نسبته الى شجر التوت. يتعلق بتلك الثريا فوانيس مرصعة باحجار كريمة، حمر وصفر وزرق، حين ينعكس عليها الضوء تغمر العين بأنوار فزحية تنشظى على الارائك المصفوفة حذاء الجدارين. قطيفة بهت لونها، كساها الغبار، اذ لم يجلس هنا احد على مايبدو منذ زمن، لاهو ولاغيره. تتذكر انه كان يعبر الممر مسرعا لايجذب بصره وانتباهه سوى الاحجار الكريمة في فوانيس الثريا. جمشت، ويسر، ياقوت كأنه حب رمان ضخم. خطت بتمهل نحو الباحة، وفي ذهنها انه سيفاجئها جالسا على حافة البحرة المرتفعة نصف متر عن الارض، لا. ستجده جالسا على كرسي في الايوان، على الارجح. غير انها لم تواجه الا بفراغ المكان، النافورة بحوضها الدائري وقوس النبات والاعمدة الضخمة المحيطة بأرض الباحة.

ارض الدار رخام ابيض واحمر مورّد، تحيط بالنافورة، ويحيط بالكل ممرات كسيت بالاحجار السود والبيض. تقدمت من القوس النباتي وقطفت زهرة من الياسمين، القتها في الحوض، ورأتها تدور مع التيار، كانت تنث الذرات الناعمة، مانحة الحياة، بأريجها الفاغم للانف، وشاهدت وجهها المستدير يترجرج مع الموجات التي يسببها تساقط الماء من الوردة النحاسية، الوردة التي يتطلق ماؤها شأبيب تتفتت في الحوض قطرات من اللؤلؤ. ابن القمر سألته قبل ان تخونه، وكانا ماشيين قرب نهر المدينة، فحدق مليّا في وجهها، وتلك ايام مضت مثل خيالاتها.

هاهي الاعمدة بتيجانها واقواسها ورسماتها المزخرفة ترتدي سلطة عينيه حينما كانتا تنظرانها بحنو وامتلاك. في ايام الربيع والصيف، وقد عاشاها راقصين سعيدين. في الشوارع والازقة والحانات، دون ان يحدسا ولو بسيط حدس بقدوم الشتاء، ذي الزوابع والثلج والريح. لم يدركا حينها ان الكائنات ستدخل ذات يوم ملكوت الجفاف والعتمة وعالم الموت. تخريمة سوداء في الخشب، عين عميقة الروح. لون الثريات المتدلية في باحة الاعمدة. فوق الممرات المكسوة بالحجر، طيور حب تتقافز وتمرح: بلبل للشوق، عصفور للقبلة المتأنية، دوري لليد وهي تتخلل شعرها الحنّي. خباز ونبتة خمّيسة وفسقيات مزهرة تتناثر حول الباحة ومرآة عتيقة. كان يغازلها عبر بلورها، يرسم لها حركات واشارات ليضحكها، لا تشبه بعضها، يخترعها مثل حاو كلما دخلا البيت. اسنانك في المرآة بلور على شجرة سرو. كان يقول لها، شعرك واحة نخيل في صحرائي، يداك مرهم سحري. وغير ذلك من الجمل التي يبتكرها اثناء وقوفهما امام المرآة او تجوالهما في الباحات والممرات. دارت حول حوض النافورة، داعبت اوراق النباتات، وكانت قدماها تداعبان فيها رغبة ملحة للرقص في ساحة البيت، بين مجسات الاثاث والتماثيل والاقواس والنقوش. تفرغ تلك الطاقة الحبيسة في جسدها، مسحت كل زاوية في البيت بعينين سوداوين متأملتين، استوقفتهما خابيتين موضوعتين على جانبي الليوان.

راودتها فكرة ساخرة، هي انه يمكن ان يكون مختبئا في واحدة منهما، يلعب معها لعبة من لعبه الغامضة الغريبة، تقدمت الى الخابية الاولى، المصنوعة من الفخار، المغطاة بغطاء خشبي،

أزاحت غطاء الاولى وحدقت الى الداخل. قنان فارغة وزجاجات مكسورة، عرانيس ذرة. قطع قماش منسخة ومزق اوراق. لم يكن هناك! ثم مشت الى الخابية الثانية فأزاحت الغطاء ولم تجده. ما للغبار يتكأكأ على التيجان واطارات المرآة والارائك؟كيف يمكن لها ان تتبعه ولا تضل. في زحمة هذه الاشياء المشغولة بعناية؟ كما لو اريد لها ان تظل خالدة مثل وجهه. وضحكاته واصابعه التي طالما جالت على مسامات جسدها. عضوا عضوا. زاوية زاوية. تغلغلت في الشعر شعرة شعرة. و مثل مياه عذبة توغلت في خلايا جسدها. لابد ان يكون قد غادر اللبوان قبل دخولها بلحظات. انه فارغ! طالعتها الحكم المكتوبة بالخط العربي. نسخ. كوفي. ديواني. وهي متوزعة على السقف والجدران ومتكآت الارائك وكراسي الجلوس المنجدة كلها بالبروكار. بروكار يتوهج بخيوط الفضة.

قال لها: ارغب ان اعيش هنا. ظل جسدك لي غطاء. طاولة وكرسي حول النافورة. قهوة ودخان وقليل من الكتب والموسيقى. انت هناك في المطبخ. تتنقلين بين كراسي المائدة تعدّين الطعام. لم نرد عليه. لاتود فضاء حياتها في مطبخ حتى لو كان في جنة. لاتتخيل نفسها في أسار عشق. ولا مكتوبة بنار هواجسه. تخيلت جسده زخارف. والوانا وموسيقى كلمات. لكثرة ما كان يعيش تفاصيل هذا المكان. ويغور في جماله. واشعاعاته المنبعثة المحاصرة للحواس اجمع. سقف اللبوان ببضوي الشكل. تنطلق من مركزه اشعة هندسية نحو المحيط. خضراء مزرقة. وفي المركز سلة مليئة بالبرتقال والتفاح والعنب. والتوت البري. تتدلى من ثمرته سلسلة سمراء تحمل اثقال ثريا من الخشب. في الزوايا كتابات

تتزاوج مع عسالیج واوراق وتکوینات هلامیة الهیئة، تضیع فیها حدود النوافذ الداخلیة وتصبح الجدران بحرا لانهائیا من الاشکال. الوان وایحاءات سماویة تبثها الخطوط، ترسلها رسمات الخشب المحفور، والزجاج المعشق، او المکفت، بالعاج والصدف، البحري منه والنهري.

من یدلها علی آثاره، من یرشد احاسیسها الی مکمنه؟ تتلفت حولها، علها تجد شخصا یؤدي المهمة، لاتری سوی أبواب مغلقة، منقوشة، مزخرفة، کأنها معدة للرؤیة ولیست للولوج، خاطبت الاریکة بصمت، سألتها: أین هو؟ اجابتها الاریکة انه کان هنا، رائحته معششة في نسیج البروکار، وثغرات التیجان بین التفافات الورق، قالت للاحجار الکریمة: هل احسستن بخطاه وهو یغیب في الممرات ؟أجابت حجرة زرقاء، لم یترك علی ادیمي سوی اشعة بصره، وما عاد امامها الا النافورة، زهرة المعدن التي تطرطش الماء بمتعة، کان لصوت الماء دوي غریب لم تألفه اذناها قبل الیوم، ظنت انه دخل الحوض، تحول الی ماء، امتصته النافورة من الاسفل ولفظته لؤلؤا وقطرات، ذرات وجزیئات، عبوره ضاج، وتشظیه مدمدم، وهاهو یسمعها خطاه وحرکاته وضحکاته وهي ترتدي جوهر الماء وخلوده.

غاب في الشتاء، وسبحیا في الربیع، ما علیها سوی لمّ اجزائه، من الالوان، والماء، والابواب المغلقة، والثریات المعلقة، والهواء الحامل لرائحة الخباز والیاسمین وهو یدرج علی عقدها وفرطیها، اصابعها ورموشها المکحلة، المرتفعة الی الاعلی بجرة لطیفة، تجعل عینیها مثل لوزتین ناضجتین، انا الاریکة والکرسي، اسد النحاس ونافورة الماء، خابیة الفخار وعتبة الدار، کان یقول لها، مرآتك التي ترین فیها شفتیك وزینة شعرك، سرتك الشافة من وراء الحریر

وحاجبيك الشبيهين بحافتي جبل في غروب كئيب. يدخلني الصيف الى مخدعك ويخرجني الشتاء الى ازقتك. امر كل سنة على قلبك. ثم يتخطفني الخواء والليلة المظلمة. ابتها المرأة المتضوعة برائحة الذرة. المعطرة باليانسون والاعشاب. ابحثي عني في هذا البيت. لانني فيه ولدت وفيه مت ومنه سأخرج. تذكرت كلماتها بوضوح. قالت له انا غبار. سافترش تخاريمك ومزهريانك وابوابك المكفتة بالصدف. بحرتك المدورة وطبعات اقدامك على المرمر. لكنني محكومة بالضياع مثلك. بتتبعك من باب الى باب ومن اريكة الى اخرى. الى ان يدلني احد عليك. سنخرج معا ثم نسير تحت المطر. في شوارع المدينة العتيقة.

غادرت الليوان. وسمعت حذاءها يرن على البلاط. الى النافورة لم تنظر. وما رشفت نبتة الخميسة بعينيها اللوزيتين. تجاوزت خوابي الدار الفخارية. وبذلت جهدا فائقا للتخلص من اذرع المفرنصات والزهور الحجرية والاطواق. ثمة باب واحد فقط كان يستلها من غيمة الذرة السابحة فوقها. باب بني مرقش بالاصداف البيض. له عينان واياد وارتجافات حبة. يشدها اليه. عليها ان تستجلي سر الغياب منه. وعبره. وقفت امامه. مسرنمة. مستلبة الارادة. فالقوة واضحة في فضته ونحاسه وجوزه واطره المشغولة بالسنين. تتلمس الرسوم. فضة ونحاس مضفورة بعضها مع بعض. بافاتح الابواب افتح بابي. وسلامة الانسان في حفظ اللسان. فوق ذلك اناءان من نحاس موضوع فيهما زهور منمنمة. في التويجات والاوراق والعروق احاسيس مرهفة. حية. تتحرك مع خفق النسيم. وسريان اشعة الشمس المنعكسة من الزجاج المعشق في النوافذ والطاقات

وتيجان الاعمدة الوان خريفية، احمر وابيض، اسود واصفر، حفل عشب مزهر، تنقل المشاهد الى عالم ثان، عالم حلم وغرابات وفنون اقامها بشر فانون يتوسلون فيها نفحة من خلود.

لاندري كيف انفتح الباب، ومن اطل عليها من الداخل، ماتراه امامها وجها غريبا، جسد ليس جسده قطعا، والصوت ليس بصوته، رغم ان سواد الحدقتين واحد، هل رأيته؟سألته بتردد، اجابها انه يقطن هنا منذ خمسين سنة، والبيت بيته، وتلك الزينات خرجت كلها من بين اصابعه: زرعت الكباد في الحديقة الخلفية، والنارنج، اعتنيت بالزهور، وأشدت الممرات والاقواس، طائر الدوري اطلقت اساره بين الكباد والببغاء اشتريتها من ميناء جزيرة في عمق المحيط، كان يأتي الي ليعيش اعاجيب الفن كما دأب على القول، وبالامس ظننت انني لمحته يتجول في البهو ولا ادري ان كان قد دخل الى الحديقة الخلفية ام خرج الى الزقاق، معه لايمكن الجزم بشيء.

ودون مقاومة منها، جرها من يدها، وفتح باب غرفة بمفتاح معه، كان الداخل معتما، فما كان منه الا ان أضاء مصباحا غير بارز، لاتراه العيون، كادت ان تغيب عن نفسها، هي في مكان لم تقع عليه عيناها من قبل، جدران الغرفة سجادة من الاشكال الملونة، النافرة منها والغائرة، سروع عنب، واغصان تستطيل الى مالانهاية، تتداخل فيما بينها، وطيور من كل شكل ولون، بط وعصافير وطواويس تنتهي اذيالها بورود وازهار ومباخر وحيوانات، تبدأ التخاريم من الارضية متصاعدة نحو السقف، والزوايا الفوقانية خشب جوز مخرم خلفه زجاج ملون وخلف الزجاج مصابيح تطلق الاصفر والاحمر واللازوردي.

في الجو تشيع موسيقى لرباب، هادئة، مسترسلة، شجية، تتغلغل في شعرها وبين اصابعها وتنفذ الى قلبها، النابض المتوائب مثل نظراتها، الهواء نغمة ناعمة، تهدل، او تسقط بخفة من ربابة هائلة متخفية في الجدران أو الحديقة الخلفية. الموسيقى المنبعثة من بئر الروح، تناغم، وتوافق، نظام ينتقل من مدى الى قرار، ومن خفة الى سرعة، عندها تحول الشخص امامها الى كائن يشبهه تماما، يأخذ بيديها وينجول معها من غرفة الى غرفة، ومن ممر الى آخر، وهي تسير مخدرة، لم يعد للعالم الأخر وجود لديها، انها زهرة خميسة تطفو على مياه الحوض، شمالا تلقيها الموجة وجانبا تؤرجحها، بأستسلام لابحد.

لقد حاصرتها الكلمات، من كل جانب، وصار جسدها بؤرة تلتم فيها مفردات وجود ثان لم تعشه سابقا: موبليات، سقف، جدران، خزف، عظام، فضة، خشب مخرق، زجاج معشق، خشب جوز، طرابيز مكفتة، ثلاثة اربعة، كتب مجلات حبطان، زجاج بلدي وحجر مزّي، وبرواز، ثم براويز تؤطر رسوم اشخاص مبتين معلقين قرب السقف يروون بابتساماتهم وملابسهم وايحاءات وجوههم قصة اجيال سابقة فطنت البيت في الماضي السحيق، أو زارته او لها قرابة مع فاطنيه، ستحوله، بغفلة منه، ومن هذا الزمان، الى نملة في لوحة من اللوحات وستحول اللوحة الى قصة من قصص الخيال، كتبها شخص ولج البيت ولم يخرج، اكلته النقوش وزفرته أشجار الكباد، تناثر جسده مع المياه قرب الاسد البرونزي.

حمرة شعرها مجرات آخذة بالزوال، في مكان قصي من الكون، وروحها هائمة لاتجد صدرا تستقر فيه، هو فقط من منحها الرفقة

ذات يوم. لكن ذلك. كل ذلك. حدث في اصياف فائتة.

دخلت عشتار دون ان تحس. او تدرك كيف. الى بهاء حديقة البيت الخلفية. لايثنيها شئ في البحث عن حبيبها. وجدت القيثارة المنغمة للموسيقى تتقافز فوق نجم البحر ذي الاذرع السود والرأس الاخضر. وعجلة المهرج بدولابها الواحد تدرج فوق ارضية فهوائية تناثرت عليها الاشكال. الضوء ثابت. لا يهل من افق ولايغيب في افق. والهواء بحر من ثلج. والسكون شامل. سكون الجنان الارضية وقد اشيدت بعيدا عن ضجيج البشر. مربع مثقّب بالبقع السود. ومخروط اخضر فيه عين لاترمش. ثابتة ترقب قفزات اللولب صعودا وهبوطا. من الارض. نحو السماء. حيث النجوم لها شكل ابراج والمجرات مقرفصة جوار بعضها. يد لاتراها. توجهها في الممرات. مشت على عشب احمر يطلق الموسيقى تحت قدميها. ووقعت على سلم منتصب في الهواء همت بصعوده لكنه غاب عن نظرها. تحول. بعد لحظات. الى اذن حمراء كبيرة. تتسمع وقع الخطى. زفرات الصدور. همسات الالوان في عروق الاشجار ونتوءات التماثيل والجداريات التي تأسر العيون اينما حدقت.

أكياس بيض مليئة باللبن. ابواق وبالونات وهياكل عظمية تتقافز لاهية. هي المرة الاولى التي ترى فيها الكروموسومات تتجسم امامها. تحيى في فضاء رحب. بالوانها السود والبيض والحمر. واحد للعشق وآخر للجنس. وثالث للخضرة التي ستتفجر في الربيع. وراقبت اخيرا النملة العجوز تدب على اقدامها. تزيّن رقبتها المجعدة بعقد من الفضة القديمة يزينه حجر اخضر واسع. ممسكة بخيط اسود تلاعب فيه دبا صغيرا اصفر البطن. ابيض

الوجه. له قرون مثل قرون النملة. وخصيتاه متدليتان في بحر القهوة السائل تحته.

والحديقة ليس لها باب لتخرج منه. ولا سياج لتطل منه على حبيبها. والافق لامتناه. والكون عالم من خيالات واوهام. الى اليمين مشهد ذكّرها بيوم ماض من حياتها. سنابل القمح تنتصب في الهواء مكتنزة بالحبوب. تنتهي بشراشيب طويلة ذات لون اصفر يشوبه قليل من الخضرة. فوق القمح. شمس غير مكتملة ترسل اشعتها الى فوق. لكنها اشبه بمنجل أعد للحصاد. وامام الشمس والسنابل نساء يرقصن. احداهن تمسك مشطا والاخرى كاروكا فيه وليد. وثالثة تهيء نفسها للفراش. افخاذ سمينة وبطون ضخمة. واثداء تنفجر بالحليب. وتحت. اخذت النباتات تدفع التربة عن سوقها. محاولة المشاركة في حفلة الشمس والرقص والغناء. تلبستها روح السنبلة. واخذت اعضاؤها تتمايل بين الاشجار الملونة. واخذتها المواجد الى سمائها. في كل شعاع جزء من حبيبها. وفي كل سنبلة واحدة من خلاياه دمه في الاشجار حولها. والغيطان الزرق وفي النهار المنير. غابة الزيتون حمراء. وخلفها غابة من اشجار ليلكية. ثم افق اصفر عميق الصفرة. وفي الحقول عشب كث لاتخترقه سواق ولا ترقشه ذرة. الى يمينها حقل من الزهور الصفر فيها ازهار بربه رقيقة البتلات. لاشوك ثمة. بينما تكاثفت الاوراق حتى صار لونها اسود. وفي مكان ناء بحر محيط لا سفائن فيه. والجهات فارغة. والعين لا ترى بشرا. الانسان في الشجر والنبات. السنابل دماء حمراء تربط تلك الارض التي مشى عليها ذات يوم. بالسماء التي رام بلوغها. النفاذ الى كنهها الازرق. كيف لايكون هنا.

أذن؟ تساءلت مع نفسها، هو الذي قادها من يدها الى الحديقة هذه. ادخلها الى روحه. المكونة من غابات ومياه وماس. بخور ومر واشجار بطم. مخلوقات خرافية ورحلات وشطآن وانفاس حقول. لايهم. سنلمه. خلية خلية. عضوا عضوا. جهازا جهازا. نعجنه بالموسيقى الربابية. تبلّه بالمياه. تعطره بالياسمين. ثم تعود به الى الازقة والحانات وظهيرات المدينة. سترقص معه تحت المطر. نزنّره برائحة الذرة. وتطلق طيور هواجسه نحو الافق. ستغنيه امام البيت موسيقى على وتر رباب. بحجم الارض.

عشق آباد

تفصلنا ارض شاسعة. جبال مكللة بالثلج وبحار. اميال بعضها تتوالد من بعض. نجوم تغيب وتبزغ.هذه الجدران عارية. تلتم وتضيق. الروح تشتعل. يفصلنا الماضي منمنما بالوجوه والاصابع والاسماء. مشاعلنا البومية تنقضي بين المطبخ وعنبة الدار. والصور العتيقة في براويز مهملة.الثلج في الشوارع. السأم يصبغ النافذة. الوقت افعى تلتف على نفسها. يوم يجر يوما. ليلة تتناسل من اخرى. وأنت الحاضرة.كان خيالك يترجرج على سطح المرآة التي انظر بها نفسي. يدور مابيننا الكلام وتسحرني رموش عينيك فأمد يدي لاداعب ابتسامتك الا انها كثيرا ما كانت ترتطم بالزجاج. اين مكانك اذن؟ توسلت الزئبق ليدلني عليك فلم يوفق. وامسكت بالضوء الساقط مابيني وبين المرآة ليجمع لي صورتك فأعتم.

شعرك بضوء ليالي. ينهدل على كتفين مثقلين بالاوهام. احسبه خيولا تنوائب على صدري. تناثر فأرتخيت. التم فاغراني بالدنو لملميني كما تلملمين رماد سجائرك. امحيني مثلما اكتبك. اظل هائما سطر على دفاترك.التمعت عيناك بحريق الحب. تحولت الى

فراشة. اضئت فأحترقت. من يطفئ النار؟ في اليوم الاول اقتربت. في الثاني لمسنك. كرت الايام خضراء كالشجر. وانت الآن بعيدة ابعد من فكرة شاردة. قريبه مثل جدران عارية.عندما دسست جسدك في الفراش حسبتك قطة. اصابعي غارت بشعرك وانحدرت الى رقبتك ولم اقع على وبر. القصص التي كنت تنسجينها ببراعة محاولة فاشلة لاختراع حياة اجمل. رأسك في الطين واوهامك سابحة على سفح الجبل. امك التينة وابوك غراب المساء. ابنها المرأة المولودة من البركان.

اية الغاز ينطوي عليها صدرك؟ نحن غرباء في هذا العالم. جئنا من الظلمة وسنعود الى الضياع. تفاصيلك جمعتها. تتراقص في الذهن فراشة من لهب. تبحرين كغواص ماهر الى اعماقك. غوصك مرهق. الغازك تشظيني. اتذكرك جسدا رهيفا. يتمايل على شجرة. انتظر اللحظة المناسبة لاؤبدك. اؤبد العينين السوداوين. الشعر الفاحم. الابتسامة المقرية.السنديان حولنا. التوت البري والجبال. يحدق فينا كهف عمره مليون سنة.هل نقضي الليلة في عتمة الكهف عاريين؟ العربات تمر. الشارع مكتظ بالبشر. اصابعنا تتزاوج والليل يجر شالاته الصوف على الاسفلت.نأكل التين. نفكر بأضواء المدينة. نطير مع النجوم تهتز مثل نيازك.

تلجين البيت. محروسة بأنتظاري. تتكئين بنعبك على الاريكة. تدخنين.تحلمين.الحقيبة تنام بين فخذيك. لك الروح وهذي الغرف ومنامتي وحبل الغسيل. حمامي وسريري. طاولتي وكتبي. لك الجسد الذي اضأنبه بعينيك.احلامي. عذاباتي.اسئلتي التي تخاف صمتك.لمن تكحلين عينيك وتبودرين خديك؟كيف تقرأين بحرا من

موجـه تائهة؟ ازرق بخـفي الكثير. ليس الازرق بداية ولـن يكون نهاية. ثمـة تفاح ذهبي واخطبـوطات عـجائبـية ومـحار. اشنات ومنحـدرات باقوت. اشعـة كونية. اقواس قزح. حكايات بحارين. عـرائس بحر تشـدو لبحار مغامر.

دخلت مـعه الكـهف. جلبتـما النبيـذ. واوقـدمتا النار. فـامتـلأ الكهف بدخـان وجودك. تهوي من السـقف دلايات كرسنـالبه نزفـها الحجـر. جليسك كان كـهـلا يخاف عنفوان جسـدك. شربتما الخـمرة وغصتمـا بين الجذور. ولكنك انقلبت الى غورلا مرعبـة. وما كان منه الا ان فر هاربا.

اخـاف اوهامي وصـمـــنك. العـزلة رحم تتـراقـص فـيـه اشـبـاح الظنون.جـالسـه على الطاولـة. ترتشـفـين كأسك. خـيال.يمـضني ان تكـوني نديمة لغيري. لا احتمل دعوة لآخر. الخيالات تحملني اليك.الى المدينة المسورة بالجبال. افتقدك. امسح الشوارع بقدمين وجلتين. شعـرك المتطاير يـغيب في الامداء مـثل نورس. ادخل الحانـات حانة حانة. الازقة زقاقا بعد آخر. امتصك الهواء ام سحرتك اغاني الموت؟ اود لو اطوي الوقت كمنديل. ارحل الى الغازك وهذيانك واهوائك. ارحل دون عودة.

طلاوة الانوار في الحور. سيلانات الماء في النهر. بجعاتنا البيض قرب طاولة تنزوي تحت العريشة. فنجان القهوة امامك.عيناك تبحران في عيني. مـابيننا الدخان ابيض. الشوق حريريا. والاحـاسيس التي لم نسـمهـا.الافق امـامنا شـاسع. وتضاريـسك عصـبـة على الكشف. سـقطت يدي على يدك فـمـا كـان لتـاريخنا الا ان بولد.بدأت عـجله الاحـداث تطوي نفـسهـا. تطوينا في مـسـنناتهـا.انت مـغلقـة على

الاسرار مثل صدفة. معا تنضوي تحت جنح المدينة المؤطرة بالصخور والتفاح. نتوغل في تاريخها المترسب على النوافذ.السياجات الحجرية. نوافير البيوت. نسمع شعرا. نرى لوحات ونكتب.هنالك الكثير الذي ينتظرنا:كنائس واديرة وينابيع وشواطئ وموسيقى. سأحملك بين ذراعيّ واعبر النهر. نجتازه خلف حقائبنا واحذيتنا وزوادة الطعام. نجتاز حافة العالم على اجنحة من حكمة.في الهبوب نفرش الاشرعة. ثمن غال.تنامى مذ سقطت يدي على يدك. فتحت الهاوية وزلت بي القدمان. اين الاصابع الحانية؟

ممتلئ انا بالحنين والهواجس. وفي كل ذلك تجري ايامنا ونكر. اخاف المجهول ونصف البوح. الاشارات الخفية التي حيكت على مقاسات آخرين. اينها الغامضة من فقهك بدروس القسوة؟ من سماك هاوية؟ اتذكر كعب الحذاء السافط. شريط المسافر. والكأس الاولى على ضفة النهر. الورود التي قطفناها معا من حديقة البيت الجبلي. القبلة المنحدرة عفوا الى شفتيك. الحانة المغلقة. القديس المصلوب على مذبح الكنيسة. اتذكر القطط تجرجر اجسادها من الجوع بين الطاولات. آخر ذهب على صخور الجبل. والبدلة المنسخة في بانيو الحمام. بداي تدعكان الآثار. المكوى المرتجل من وسادة. ايادينا التي تتماسك خلسة.اتذكر كل هذا ياحاضرة.

اتوغل في ادغالك بلا خرائط. شارة هنا وسهم هناك. اتعثر في صخور ومهاو. تزاغلني السبل. خلف كل نبع بيداء وكونك عتمة. والفكرة التي تطلقينها على لسانك. عادة ما تجئ نافصة. تقضمين الكلمة الكاشفة لنواياك باسنان من حديد. وتكبتين الجواب في

صدرك. حتى تراكمت الاجوبة وضاعت بلورتك تحت ذلك الركام.

تبعثرني تضاريسك فتلمني عيناك. الضياع يخلبني. الكلمات تكتبنا احيانا. كلماتك محو.كيف لي قراءة قصائدك؟ غاوية مغوية ضالة مضللة عاشقة ومعشوقة. سنرحل الى البحر قلت. كان البحر بعيدا. سنبقى هنا في السرير. لاتذاكر بعدها ولا امواج. احلامنا نرتديها مثل كنزات.تتشاغلين بقراءة الباطنية وافتش عن علبة ثقاب. وفي الليلة الاولى نسيت اسمك فرحت ابحث في الحقيبة. كل ذلك اليوم المكتنز مع امرأة مجهولة؟ باللغرابة. اضواؤك مطفأة. فناديلي تضيء للنائهين.

شعرك اسود. عيناك بنيتان. اسنانك بياض معجون بصفرة. بشرتك قهوة محترقة. يداك ارجوان. وسرتك ضيقة مثل بيت النمل.

في الصباح حنين. في المساء غفلة. وعند انتصاف الليل اوهام. احلم. في عتمة الايام. برفع الحجب كي ابصبص عليك. افتض شيئا من دثارات صمتك. بعدك. قطيعتك.تلهين ونشقى نتامين ونأرق ترسمين صورا ونبغي الوصول الى الجسد. ليت هذي المسافات مندبلا فنطويه. سافية فنجتازها. ليت هذا الوقت ساعة ندير الزنبرك على هوانا. كم من العصافير طارت من بين يديك؟الطاولة تحتضن كؤوسنا وايادينا المتشابكة. في الاسفل قدماي تشبكان قدميك وفي الجوار نسوة بدويات يختلسن المتعة.

تقرأينهم ولا اسنثبرك. تضعين قدميك في البحر وتجهلين السباحة. في القلب رواسب من الآلام وعبث.والطفل كثيرا مابقوده العبث الى سلة الموت. السلة المزركشة الخيوط. خيط الهاوية والالم والهروب. خيط الدموع نكتها خلسة تحت الاغطية. خلف باب

الحمام. عند طباخ الغاز. سابحة بعموصك هابطة في لجة الازرق. الازرق البداية والازرق النهاية. ومابين زرفتين فسحة للبياض.كيف تلتقي اصابعنا وبيننا قطيعة ياذخة؟ ورق. ورق خريف بسف في شارعي. زخات مطر تنقر الشباك.هزيمتي تتكور مثل ثلج في داخلي. جمعت حقائبي ولبست حذائي وها أنا راحل. ايتها الهاوية المظلمة لا ابصر قرارك.

كولاج عواطف

خلفية من التركواز، سطح بلاطة، قبة بحر، قماشة منصوبة على ضريح، غابة نخيل تظللها غيوم داكنة، تتخللها ظلال بيض مثل سنائر تنسدل على مسرح. وبمواجهتنا، الكتلة المركزية للوحة ترتدي هيئة رجل بقرون ثورية تناطح الفضاء.

تبدأ الظنون بالريبة، ثم تتسع بالخيالات. دلائل وأشارات سرعان ما تتحول الى يقين.

الفضاء الفاصل بين الرموش والورق، بين اثر الفرشاة وقزحية العين، المرموزات وخلايا الدماغ وهي تستقرئ المكتوم، اذ تتم في ذلك الفضاء مزاوجة الاحاسيس، عند ذراته غير المرئية تتوالد الانفعالات والاوهام، رأس مقطوع لرجل، قبضة احتجاج، فكرة نائئة من خطاب، هراوة تخترق عالم الالوان، وثمة انفصال بائن بين الكتلة ذات الالوان الداكنة، الشاحبة الحزينة، وبحر الزرفة المخضرة، المرتعدة رهبة من اشكال الافق البارزة على اللوحة، ثمة انفصال روحي ولا تناغم، بين عالمين،عالم الكتلة وعالم الفراغ التركوازي.

كولاج عواطف، دوامة مكان غير مؤتلف، وتوزعات خيالات مبعثرة.

وفي مكان ما من اللوحة قوة محتبسة، متأججة، تتنامى في طريق وعر لتحطيم تلك الاسوار الاربعة، التي تحد من الانطلاق، من الامتزاج مع الفضاء الحر.

يوما ما، سترى العين لامحالة، لوحات خالية من الاسوار،

يوما ما، سترى العين لامحالة، لوحات خالية من الأسرار.

الضريح

في البدء، كان الظهور في المنام :جدار من طين، على صفحته، يبين القدم، خشب السقف بارز، تلامسه اغصان مصفرة، وفوق السقف اشيد جدار آخر، تسافط طينه الخارجي وبانت احشاؤه المكونة من سيقان من الخشب اوقفت طولبا، مابين الساق والساق فاصل ملئ باللبن، ولتثبيت تلك الاعمدة دفت فيها، بشكل مائل، عوارض خشبية مسطحة، اين رأى ذلك؟ اوحى له الجدار باضلاع عتيقة لجسد متحلل، اوحى بفكرة الموت، فكان ان دب في صدره خوف غير مفهوم، من الموت و تلك العوارض، المسامير والانحناءات الكامدة، رغم ما يبين خلفها من سماء زرقاء عارية الصفاء، سماء ليس فيها غيوم، وليس فيها شمس، كأنها سماء فجر او غروب، هل تهل فيها ليلا نجوم، وهل تعبرها مذنبات في طريقها الى الارض؟ كثيرا ما جعله منظر السماء، في الحلم او اليقظة، يمتلئ بالغموض، والخوف، من تلك العين الشاسعة المفتوحة على الارض، ربما هذا ما جعله يهتم كثيرا بقوى الانسان الخفية والرجال المقدسين وحكاياتهم، بالتخاطر عن بعد، والايحاءات وتحققها،

البقعة الزرقاء التي استولت على عينيه، حين كان مستلقيا ذات يوم تحت اشجار الكينا. تلك التي بانت رمادية تحت اشجار الحور الثالثة النائة لفطرات رفيعة على اوراق البردي كلها. اجمع. كانت سفرا غامضا خارج الارض. بزاوله بين فترة واخرى.

هنالك عمود واحد فقط يمتد نحو تلك السماء. بنيّ الشكل مثل اصبع. ستهب عليه الريح العاصفة وتكسره لامحالة. لم تبن على ذلك الجدار كتابات او. خرابيش لاطفال. كما انه لا يجاور بيوتا اخرى تشف عن هويتها او كنهها. لقد عرفه فورا. ما ان وقعت عليه عيناه. كان يتجول في القسم القديم من المدينة. وود لو يعرف معنى ذلك. فكر طويلا بتلك الرؤية. قلبها ظهرا لقفا. وحصر ذهنه في التفاصيل الصغيرة. مرأى اللبن. لونه. الظلال. وتلك الغصينات الصفر المتهدلة على الخشب. ثم ذلك الوجه المطوق بهالة فسفورية. وكانت شفتاه تهمسان بكلمات غير واضحة. ابن رأى ذلك. وفي اي الازمنة من حياته؟ثم راحت القطة تسير على الحافة بحذر. سوداء زاهية الشعر. عيناها زرقاوان. اذناها منتصبتان. مخلب على الخشب. مخلب على الطين. وخلفها السماء الزرقاء نفسها. كان الجدار طويلا مقشرا. تساقطت صفائح منه لتكشف الخشب واللبن. وترسم بفطورها وشقوقها خرائط اشكال غير منتظمة.

اختفت الاغصان. وظلت السماء نفسها. وصفرة الطين تهيمن على الاشياء. القطة روح شريرة. وعارض سيئ سيلاقيه في الايام القادمة. ربما ليست سوى جسد لادلالة له. توغل في رؤاه ولم يفارقها. قطة وجدار. واحشاء مدينة. غير مسماة. لها قساوة الجدران والفراغ الموحش للشوارع ووحشة الكائنات وهي تعيش الحياة بلا معنى. في

يوم قائظ. وفيما كان يمشي في زقاق ضيق. ذكرته واحدة من الواجهات بحلمه السابق. لم ير قطة فوق السطح. لكنه شاهد نافذة لفتت انتباهه وربط رؤيتها بحلمه. اما الملامح الاليفة. الملامح النورانية فلم يبحث عنها في اي من الوجوه التي كان يلتقيها. اذ لايمكن العثور في الازقة تحديدا. على شخص رآه في حلم او كابوس فقط. لازال يذكر نتفا من حديثه: انك تشبهني. وانت لاتستطيع الهروب من مصيرك. كانت تلك آخر كلماته قبل ان يضمحل ويتلاشى. عدّ الامر اشارات ستقوده الى امر غريب. هنالك نداء موجه اليه. يطلقه شخص ما او مكان ما. فالامكنة. وكما جرب ذلك فيما مضى تمتلك روحا ايضا. وتطلق نداءاتها في آذان عشاقها. لهذا يدمن القدوم الى هذا الجزء من المدينة. وهناك بلا شك. رموز تجذب انتباهه. هل الامر يحدث صدفة. ام انه واقع تحت هيمنة سلطة خفية؟

الآن درفة بنية اللون. تتوسطها تخاريم. تبدأ من الاعلى بشق ينحدر اسفلا تدريجيا. ليتسع مكونا مربعا. مائل الاضلاع قليلا. منه ينحدر. بعد ذلك. شق الى الاسفل ينفتح هو الآخر على مربع يسقط منه شق مضئ ابيض. نحو مربع ثالث. يفود اضلاعه خط ابيض نحو عارضة بنية مثبتة بشكل مائل. درفة اشبه بشفرة حلاقة. ماركة ناسبت. ذكرته بطفولته. حين كان ينتظر اباه. ما ان ينتهي منها حتى يأخذها. مستخدما اياها مقصا لخوص النخل. قطاعة لاظافره. سلاحا يهدد به الصبيان. او يرسم بها قططا على الجدار و نخيلا وازهارا كامدة. لاحياة فيها. واعضاء تناسلية يستوحيها من البقر والحمير والقطط والذباب. نافذة لا تدل على امر مريب. ولا تذكره بطفولته.

في اللحظه التي رأى الدرفة فيها. وهي تطل على سطح ينفتح على السماء. تأكد ان مابراه سيقوده حتما الى ذلك المكان. المكان الذي ستجتمع فيه. كل تلك الرموز التي شاهدها في الحلم او عاينها اثناء تجواله بين الحارات. وعبر الازقة. مدهوشا بسحر النقوش والحيطان الشافة عن احشائها والاطفال الذين يطلّون من الرازونات والشبابيك. بوجوه مستطلعة وعيون سود تحدق بغرابة. سحر يختلط بالنسيم الهاب من فضاءات الازقة. يلوّن اطر الابواب الموارية. يسفر عن نفسه بنظرات النساء من الاسطح. وشقوق الابواب والدهاليز المظلمة. قال له رجل كهل. التقاه في زاوية قرب حلاق اثري : عليك بالجدار. فهو الذي سيقودك الى الضريح. كيف خطر للرجل انه يبحث عن ضريح. فكر بذلك. وهو ينظر الى اصبعه تشير نحو باب من خشب ايضا. باب لا يشد البصر اليه سوى تلك النقوش : اسد برونزي. وعقرب اضخم منه. وابريق على شكل وردة لونس. والا فهو عتيق. الشقوق طولية. ويسد مدخلا لا يفضي الى مكان. وفي تلك اللحظة انبعث في ذهنه قبة خضراء مقامة فوق جبل. لشيخ اسمه الشيخ مبارك. قرب الضريح مقبرة هائلة لاموات قرى على نهر. رأى الشيخ يعبر النهر. قبل مغيب الشمس ليحيي الذكر على روح واحد من الفلاحين. دون ان تبتل قدماه. رآه يومايلتهم الجمر ويشك الاسياخ في جسده. وجهه نوراني واسع الاستدارة. يحيطه البخور ودخان المجامر واصوات الدفوف المنشدة للنبي. مدد ياشيخ. مدد ياشيخ. مدد والجدران المسلوخة تتماوج فوق رأسه. والكهل يومئ له الى باب خفيض. اشبه بنافذة. والباب موارب. في نهاية الزقاق.

دفع الباب فانفتح. لم يخط سوى خطوتين حتى سمعه ينغلق خلفه. الشجرة الوارفة نفسها، هي التي رآها في الليلة السابقة. تاج اخضر من اوراق كثة، تكاد خضرتها الكثيفة تمتزج بلون السماء. وخيوط عنكبوتية تتلامع على مسطحات الاوراق. عبار منشمع. يبعث الرغبة على جلب جردل مياه وصابون ثم التسلق نحو الاغصان. والبدء بالعمل. قربها جدارعال. لم تبن احشاؤه. لكنه قديم. لازال باقيا وحيدا. ليس لبيت هو ولا لخان او حمّام. يقف منتصبا جوار الشجرة وعليه آثار حريق. اين هي القطة اذن؟سأل نفسه وهو يحدق في الورق. الذي تراكم عليه الغبار طبقات. والظل الدائري في الاسفل. وذلك الساق المستدير بلونه البني. مرسوم عليه نقوش وخرائط وقلوب مطعونه وصلبان ومثلثات. تشبه طلاسم كتبها درويش في حجاب. حجاب حجب كان الشيخ مبارك يكتبها للحوامل كي لايسقطن اجنتهن. للرجال الممسوسين والاطفال صفر الوجوه. مباركة هي شجرة الغار والحوض الملئ بالمياه الذي اكتظ بالحشائش والورق واعقاب السجائر. ليس من الغرابة ان تنتهي رحلة حياته في هذه الجزء من العالم. لابد ان تنتهي في مكان ما. شئ اكيد. ليكن اذن هذا المكان. اين رأى الواجهة المزخرفة بالرسوم والكلمات والاشكال. وتلك الابواب المغلقة والادراج المتصاعدة نحو السطح. والحديقة المعلقة الى اليسار؟ اين باثرى رأى كل ذلك؟هل صادف ان عاش في هذا البيت؟هل زاره يوما بصحبة امرأة ام كان وحيدا؟هل تم ذلك في حلم من الاحلام ام روى الامر شخص ما بالتفاصيل نفسها التي يراها:الابواب.النقوش. الدهاليز المعتمة. وشجرة الغار.

- هنا ضريح الشيخ.

اخبرته المرأة الحامل. وعيناها تنوهجان بالانارة.

- كيف عرفت ذلك وانا لا ارى اي قبة له او قبر؟

- في الليل نسمع تسبيحه. قبل انه كان يقف بمواجهة النجوم ساعات. وقبل انه لاينام حتى يطلع الفجر. كان وحيدا. وفي النهار يتحول الى قطة سوداء بعينين زرقاوين.

- اين مكانه؟

- هناك. تحت شجرة الغار.

وجد نفسه يصعد سلما. مضاء عند الاسفل. درجاته من الاسمنت. ضيقا. ابيضا. العتمة تزداد كلما ارتقى الى الاعلى. حتى اصبح لزاما عليه ان يحني رأسه. سقف الدرج خفيض. تراءى له كأنه نفق لايعرف الى اين يؤدي. ثمة باب في النهاية. والهواء يسري فوق وجهه. والوجود يغيب. لكنه رغم هذا لم يزل في محيط البيت. شئ مثل الحلم. كابوس ينتهي بمشاعر من الفرح. والرحلة موحشة. لا احد. لا قطة ولا امرأة حامل ولا قبة لضريح. سقط في الديماس ولم يخرج.

نهر متلاطم الامواج. وجد نفسه سابحا فيه. عن يمينه شابة وعن يساره امرأة. الامواج متلاطمة تفور. ولون الماء اسود. وكانت المرأة الكبيرة تتحدث اليه بحكمة. وهي تنظر الى السماء. السماء مغطاة بغيوم بيض. اشبه بجبال من الثلج او الملح. كان خائفا. مذعورا مما يرى من اشكال سماوية. تذكر مشاهد القطب. وكان الشاطئ يلوح بعيدا والتيار جارف. لا احد ينتظرهم على الساحل. والارض موحشة. كان التيار يجرفهم معه. لكنهم يصارعون للوصول الى اليابسة. لانوارس في الفضاء ولا غربان. الجو معتم ولون اسود

يتقدم في السماء، يحوّل الغيوم البيض الى لوحة من السواد. هاهو الشاطئ اخيرا. وهذه بداية المطحنة، ذات الجدران الطينية. احس برجليه تصطدمان بالرمل. انه في مكان الطفولة. خالطه انتشاء كبير. لقد قطع الرحلة بسلام. عدد من الاشخاص يقفون تحت سقف المطحنة، في ضوء احمر كامد، بأيديهم فؤوس، يصفقون له معلنينه بطلا. لكن بطل على اي شئ؟ ومن اجل اي شئ؟ في داخله قوة لا يعرف من اين مصدرها. لقد صارع الموج ووصل الشاطئ؛ بامان. لكن الحياة لاتتوقف بعد رحلة واحدة. عليه ان يعيد الكرة مرة بعد اخرى والا سيجرفه التيار الى مكان غامض ومجهول. سينتهي مجهول المصير، تلك حكمة المرأة التي رافقته.

من السطح، امكن رؤية الشمس تنبسط في الساحة، بمربعات واسعة. وهنالك ظلال. ظلال البناء المجاور، والشجرة ودائرة العشب المرتفعة عن الارض، تكسو البحرة بأجمة من الخضرة. البلاط في الارضية مخلع او مكسور، ابيض واسود، وعلى حين غرة انزلقت المرأة الحامل من عتبة البيت، وكادت ان تسقط. يد خفيفة، غير مرئية، اسندتها الى الجدار فلم تلفظ جنينها. الم تكن تلك اليد هي يد الشيخ، الذي يرقد تحت شجرة الغار؟شمع سائل، يبرز مثل بقعة بلور يحيط بالساق، وهنالك شريط مشابه ملتصق بالجدار، ومن المؤكد انها شموع الزائرين والمتبركين، الذين، وكما قالت الحامل، يسهرون في ظل الجدار على شموعهم المضاءة، طالبين بركات المبت، او منتظرين اشاراته وتجلياته. يشربون المنة، يأكلون الفطائر المحشوة بالجبنة، يحكون عن الكرامات، ويعرجون على الفاطنين في الحارات القريبة، وبيوتهم التي طالها القدم، وهم بين حين وآخر يشيرون الى

تلك النقوش القديمة في الجدران المتآكلة. بعضهم ينسبها الى الشيخ نفسه. لكن الرجل الخشن. يعارض ذلك. ويروي كل ليلة كيف سقط من الجدار حينما كان يلعب مع القطة. وهي الشيخ نفسه بلاشك. لكنه لم يصب بأذى. انه اليوم زوج. ويشتغل في ورشة للخياطة. ولا تغيب عن ذهنه صورة الشيخ حين تلقى جسده الهش بيديه المصنوعتين من فراء اسود ناعم الملمس.

ولكن ما علاقة كل ذلك بتلك الرموز والايحاءات التي ادخلته في نسيجها. في البيت وحين يمشي في الازقة. او اثناء سهومه في الاكل وقبل لحظات النوم.

تلك الوجوه التي احاطت به داخل الغرفة. اين رآها؟

من اسفل تجيء الدالية. وتفرش عسالیجها واغصانها على جنة السطح. حين انقذف الجسد. جسده من فتحة الدرج. لاحظ ماتراكم من اوراق. خلال فصول سابقة. بعضها كامد الحمرة. او اسود متحلل. وبعضها لاينتظر الا نفخة لينسافط على ارضية السطح او في حوش الدار. الاوراق تهجس تغير الفصول دون شك. اكداس من ورق العنب متناثرة على المساطب. والكراسي وحتى تخاريم الجدران. لقد ماتت الارملة التي كانت نفطن هنا وتركت جنتها مهملة بعدها. قالت المرأة التي تلبس ثوبا احمر طويلا وتلف رأسها بايشارب ابيض.

كان يجلس على واحدة من المصاطب قرب بناء غريب. فيه نافورة ماء ومصابيح عتيقة. مدسوسة بين صخور وبلاط على هيئة محراب. الارملة العجوز كانت تطيل الجلوس هنا. تفتح مياه النافورة. وتضئ المصابيح. وتشرب النبيذ. تلبث ساكنة تحدق في الاسفل. الى شجرة الغار والشموع الذائبة. والالوان والنقوش في الجدران. قالت الحامل.

- هل تود رؤية غرفتها؟

- لا اود اقتحام غرف الاموات.

- بقيت على حالها لكن الغبار يغطي الصحون والفناجين والسرير. سريرها سرير اميرة.

- لماذا كانت تحدق الى النقوش؟

- قبل انها كانت رسامة في شبابها. من يدري ربما كانت الشيخ نفسه. فحياتها غامضة مثله.

من حافة سياج السطح يرى القوس الكبير. فوق القوس خشب متأكل وطابوق. كاد ان يصبح كتلة واحدة. ثم اعمدة خشبية ممددة افقيا. واعمدة اخرى عمودية. اشبه باصابع ممدودة الى السماء. خلف الاصابع اغصان شجرة. توت او حور. ثم سماء داخنة. بلون الرمل. والافق الذي لا ينتهي. لكنه حين يعود الى ذلك القوس. ينزل قليلا الى الاسفل. يجد نظرات العجوز لازالت معلقة هناك. احس برهبة في المكان. ففي فضائه توالدت آلاف الحكايات والقصص. شهد أناسا يولدون وآخرين يموتون. دسائس بين القاطنين حول المياه والغسيل ونشر الملابس واستخدام البحرة وخدمة الزائرين. الذين لن يعودوا الى المكان مرة ثانية. في الدوائر البنية والبيضاء.بالنقوش الصفراء. ثم السجادة الحجرية. المصنوعة من اشكال هندسية. مستطيلات في قلب مستطيلات. تمتلئ بالمعينيات والدوائر والمكعبات الملتفة حول نفسها. تحت كل ذلك فويسات لرازونات في الجدران. لابواب مغلقة او مهجورة. وشبابيك لا شكل واضح لها. وفوق كل ذلك مخابئ صغيرة للحمام. بيوض وريش ودماء. حشرات وهياكل وعتمة. خالها مثل عيون وفحة تحدق بالسطح والدالية والارملة او روحها

التي لازالت تحوم في الجنة.

ابن الحكمة في كل ذلك؟يولد الانسان. يعيش بين اربعة جدران. يشاهد يوميا. ذلك الجبل الاجرد امامه. يمضي الى السوق. يشتري. يتكلم. يضحك. يهده التعب. ثم يعود الى جدرانه. وحيدا. بائسا. لايعرف ماذا يريد. يصنع حوله. مثل الارملة. جنة ارضية من مياه واشجار ومصابيح. يضاجع ويجلس وحيدا ينتظر شيئا يحدث ويغير نمط حياته. ينتظره سنة بعد سنة لكنه لايأتي. وفجأة يجد نفسه في القبر. الهذا يتجول يوميا في ازقة المدينة. يبحث عن شئ يغيّر حياته؟كيف يصبح الانسان قديسا بعد موته؟من يضفي عليه تلك الصفة؟هل هم معارفه. اصدقاؤه. اهله. قبل ان يموت ام بعد الموت؟وانتبه الى اشعة الشمس وهي تنسحب من اغصان الشجرة والنقوش في الجدار والقطة السوداء التي ترمقه بعينين غامضتين. وجنب البحرة وقفت الحامل مع زوجها وهما يشيران اليه. كأنهما يطلبان منه المغادرة.

في اليوم الثاني صعد الى سفح الجبل وجلس في احدى المقاهي. كانت المدينة تحته. بيوتها. عماراتها. اشجارها. شوارعها. والضباب الخفيف الذي يشكل غلالة من البياض فوقها. انها خلطة من الالوان. تسبح فوقها رفوف من الحمام. اطال التحديق. لكنه لم يستطع تحديد موقع الضريح. رجع الى بيته حزينا وصدره معبأ بوحدة خانقة. فنام باكرا على غير عادته.

قال له الشيخ اذا كنت حريصا على سماع قصتي فافتح اذنيك جيدا. كنت رجلا مسكونا بالمغامرة. لا اطيق البقاء طويلا في مكان واحد. في داخلي شئ ما ينخزني يوميا. البحث عن الجديد. المرأة.

الاماكن التي لم ارها سابقا. ان اعرف اشخاصا جددا يتكلمون عن قصص حياتهم وعملهم وزوجاتهم. سافرت الى كثير من البلدان. تكلمت بكلام غير لغتي. وعشت في فنادق وركبت سفنا وطائرات. تزوجت في بلاد بعيدة. وتركت خلفي طفلتين. لقد نسيت شكليهما. قلت لزوجتي انني راحل فبكت وثارت. لكن ذلك الشئ لم يكف عن نخزي. رجعت الى مكان احبه. في تلك الحارة القديمة التي تعرفها. سكنت في غرفة كبيرة واسعة النوافذ. تطل على غيضة اشجار لا اعرف اسمها وتحت تلك الاشجار كثيرا ما كان اطفال الحارة يزعجونني بزعيقهم ويوقظونني من نومي. عشت وحيدا. وكأنني آخر رجل في هذا الوجود. شاهدت كثيرا من بروق السماء وتبللت بامطار وسفعت وجهي ريح الشتاء. شئ واحد ظل يلازمني. التحديق في النجوم. وحيدا مسحورا بتلك الانوار التي لاتغيب. فكّرْ كم بشرا صار ترابا وكم مدينة اندثرت وتلك النجوم في سمائها. كان اقصى ما اتمناه رؤية سريعة لتلكما الفتانين اللتين خلفتهما وراء البحار السبعة. امهم لا تخطر على بالي كثيرا لكن الطفلتين هما من يلتمع في ذهني كلما وضعت رأسي على المخدة. لقد تحولا الى نجمتين يأتلقان فوق رأسي كل ليلة. انفظ الجدار بعد الحريق. وتهدم البيت المجاور لكنني بنيته ببركتي وحبي لهؤلاء البشر. آثار الحريق رأيتها بعينيك. لماتزل على الجدار.

بكيت. حزنت. فرحت. وقليلا قليلا رحت اتقبل مصيري. مصير رجل قرر ان يعيش وحيدا في غرفة واسعة. لا تدرك كم هو مؤلم ان يعود المرء ليلا ولا يجد امامه سوى فراش مبعثر الاغطية. وفراغ مرعب. وبرودة تنث في وجهه. صادرة من الجدران والباب والملابس المعلقة في

مسـاميرها. وتلك الـكوابيس، التي لاتفارقني. الوحـدة هي التي تحول الانسان الى قديس، حين تكون وحيدا وتقف امام هذا الكون، ثم تشعر بتفـاهة الاشياء. وتحـدوك الرغبة فـي ان تتحول الى ضـوء. تسري من بيت الى بيت. ومن شـجرة الى اخرى ثم تصـعد نحـو الجبل لتـختلط بالنجوم والشموس البعيدة. لا فرق بين ان تكون قطة سوداء او شجرة غار، ارملة او حامل. الا تختلط الامور في الاحلام والكوابيس؟

وانت عماذا تبحث؟ فكّرْ بانك وحيد. ستعيش وحيدا وتموت وحيدا. وهذا ما سيحولك انت الآخر الى قـ س مـثلي. عش وحدتك ولا تخف. ففي يوم ما ستتحول الى ضوء.

مـثل طيـف بدأت المـلامح تغـيب. في البـدء تلاشت الـعـينان الضـيقـتان الحـادتان. ثم تلاهمـا الجسـد النحـيف وبعد ذلك الوجـه الاسـمر، المـزموم الشـفتـين، المـزين بشارب خـفيف. لم ير حـوائط مفـشرة ولا اعـمدة مـن خشب. كـما لم تنط القطة من الجـدار الى شجـرة الغار كـما كان يحدث سـابقا. وشيـئا فـشيـئا اخذ النور يعم الغـرفة. وبدأ يـسمع ضـجـيج الاطفال في الـحديقـة. كـان الشبـاك مـفتـوحا على بحـر الخـضرة في الشـجر، وبقـعـة السمـاء الملبنـة بالسنونو.

صـرف نهاره ذاك. بالبـحث في ازقـة المدينـة القديمـة عن ذلك الباب الشبـيه بالنافذة. اذ كان يحلم برؤية الحـريق على الجدار والمرأة الحامل وشـجرة الغار. رأى كـثيرا من الحيطان المـهدمة. وكـثيرا من القـطط تنقـافز عليها. رأى نسـاء حوامل ورجالا مسنين ونفـوشا على الواجهات لكنه لم يقع على ذلك الباب.

لوحة غير مكتملة

دمشق مرة اخرى. مدينة الحلم. مدينة اليقظة.زهرة الاوركيديا الطافية على جناح التأملات. بينها وبين كوبنهاغن عشر سنوات.عشر سنوات من السفر بين المدن والبلدان. من الحب والتشرد في شوارع غريبةبأبنيتها وناسها وهوائها.من الزواج. الاطفال. اللغات. السأم. الحنين. غير انها عبرت تلك البرازخ والمحطات لتستقر في الروح.متوهجة مثل شمسها.البقة الفة ساحة المرجه.القة مثل نافورانها التي تقذف العيون برذاذ مائها.

دمشق تدخلني مع الهواء. دفعة واحدة كلما اجتزت باب مطارها.شجيرات الأس. الصنوبر حول الطريق. وسماء الفجر وهي تسري من قرية الى قرية. ومن ساق الى ساق. من مئذنة الى قبة ومن قبة الى سرادق منزو في حارة الشيخ محي الدين. مقدمات لابد منها لكي تجلسني على طاولتها الشهية الالوان.

في مكان قصي قباب بيض. ومآذن تحف بأجنحة الحمام وهو يطير مرحا في سمائها. وكأنه يؤدي رقصة على انغام موسيقى خافتة هناك لكنها غير مسموعة.حمامها يشعرني بالنقاء ويسمو

بي الى المطلق.حمام ومآ ذن. بنلة من ذكرياتها التي رسخت في ذهني كل تلك السنوات على فرافها.

لانخيل في شوارعها. وكثيرا ما تجولت تحت هفهفات نخيلها الضوئي.احتفيت بعيد الميلاد على اهتزاز نخيل من كهرباء.كنت سابحا بالاشعة منقوعا بالالوان. زحمة سيارات ومآرة ورائحة مازوت. والاغاني الشعبية من النوافذ تنصبّ في الشارع .واللغة تنطرطش على البلاط كحبات من اللؤلؤ.حلبية مفخمة. شامية ناعمة مثل القطيفة. لاذقانية نطفطق كحبات المسبحة. ديرية في حروفها قليل من رمل الفرات وسعف النخيل ورائحة القرنفل الذي تتعطر به النساء.

تخيلت نفسي في مدينة اخرى...برشلونة في الخريف. كوبنهاغن في الصيف. او هامبورغ بعد ان ودعت ربيعها ومسحت الضجر من شوارعها.

دمشق بعد عشر سنوات تجمّع اوصالها لتكون مدينة كونية مثل سانباولو والقاهرة وكاركاس ولشبونة. انني اكتشف نفسي بعد كل مشوار في اسوافها. فاذا بي انتمي الى الصخور في القلعة والبهارات في ساحة المرجة والايقونات المبعثرة في كنائس باب توما. وعيون النساء السود. وهن ينقلنها من باب الى باب. ومن بضاعة الى بضاعة. في الصالحية.

في قمة قاسيون ضوء متوحد مثلي.لابد ان يكون ضوء ذلك المزار المنزوي هناك منذ مئات السنين. سألت عنه صديقتي فقالت انها لا تعرف من يكون.القبة الخضراء اوحت لي نهارا. تحت شمس ساطعة وكأنها تجلل رفات قطب من اقطاب الصوفية.

قبة ضريح محي الدين بن عربي كانت خضراء ايضا.البناعة مسيل ينبع من قلب. صحراء الم وحزن.لماذا يعيش المتصوفون وحيدين ويموتون وحيدين؟لماذا تشعرني دمشق بالوحدة احيانا. الأن في روحها نفحة من نفحات محي الدين؟ البيوت التي تصعد معراج جبل قاسيون تبغي هروبا من هذه الارض نحو المجهول. على ايقاعات الدفوف والمواجد الليلية.

اتجول في شوارعها. وأزقتها الضيقة وحاراتها الملتمّة على نفسها. في كل شارع دهشة. في كل زقاق مسرّة. وفي كل حارة مايجذب البصر.ازقتها تبدأ من الآن ثم توغل في اروقة التاريخ.كلما مشيت فيها. كلما وجدت روحي تنسحب جزءا جزءا نحو الماضي .

وراء تلك الزاوية عمامة عباسية. فوق ذلك الباب سيف اموي منقوش بالزهور. في مشربيات خشبية في الجدران قناديل زرق من ايام المماليك.عسس يدلفون بغتة الى باب مشرّع نحو عتمة. اسباف تتلامع بأشعة غيوم عبرت السماء ذات يوم. وحوافر رائحة غادية وأجراس.

التواريخ تتقاطع..تندمج. تتراكم على بلاطة من بلاطات الجامع الاموي. او على صخرة هائلة من صخور القلعة.وأنا واحد من سدنتها ومريديها.

قوس يمحي قوسا. رتاج يغلق رتاجا. وباب يغازل بابا...باب نوما. الباب الشرقي. باب المصلى. الباب الصغير. باب الجابية. ابواب كانت ذات يوم مشرعة على جهات الارض اجمع.مطرقة على هيئة افعى محاطة بنقوش مزهرة. لونها الذهبي يلتمع وسط باب بني الخشب. لزج السطح لكثرة ما لامسته الايدي. ولخشونة السنين المارة مثل

ريح عاتية عليه. وقفت أتأمل المطرفه والباب دقائق وذهني مشغول بما وراء الجدران.

جلست يوما على السفح وكانت دمشق تحتي كنا في لحظة صفاء. انا وهي.عاشق ومعشوق. يتباريان بالولوج الى الخفايا.كشفت لي اسرارها ومفاتنها.رأيت اذرعها تتوغل بين الهضاب بامتداد الافق. فعجبت من جبروتها الذي كان غافيا على ركاب هذي السنين.احسست كما لو ان ثمة رجلا آخر جالسا في مقهى ضيق في زقاق من ازقة المرجة بحدق في. ويحاول مخاطبتي.ثمة دائما عيون تتطلع الى السماء. وثمة دائما عيون لاتفارق الارض.

رمشتْ عيونها فكان الحمام. ملون الريش خافقا فوق الابنية والاشجار والابراج.امدتني بطاقة ليس لها حدود كانت القباب البيض منبعها. جذبتني الى فيضها الروحي واحسست نفسي حمامة تحلق وحيدة..حمامة من ضوء.وكانت دمشق منبسطا من بيوت وعمارات وبشر وهموم.كأنها صورة مؤبدة على الارض. اذ تلاشت الاصوات وتوقفت الحركة. تحولت بلحظة خاطفة الى وجود مطلق.

هل هي هكذا منذ مئة سنة؟كيف ستكون بعد مئة سنة؟ من سيجلس هنا مشرقا على وجودها. بعد يوم. بعد عام. بعد قرن؟كم سربا من الحمام يلامس وجهه بخفق الاجنحة؟

هذا الامتداد بين الجبل والهضاب راسخ يتسع للأحلام والمشاريع والابنية.للاغنيات وقصص الحب تروى همسا في ازقتها.انها المدينة في طور البلوغ. الخالدة التي لن تكتمل.صبية يرقصون على نقر طبلة. وباعة جوالون. وبردى الذي لما يزل مخمرا بقصائد الغزل والشجاعة والرثاء.فساطل وجوائز وطلاء وابقونات

تشبع في ابهة الكنائس الحانها الجنائزية.برتقال وتين ورمان.
ليلها أليف، ونجومها دانية.

كلما حدقت الى نجومها احس وكأنني ابصر روح جدي الذي مات، واعمامي واخوالي وروح جدتي.اكاد امد يدي لاقطف نجمة من نجومها، اضعها فوق الخزانه كي احلم بها في المنام.نجوم تمد مع تفاصيلها خيوطا من حرير.خيط بين الزهرة وشارع الصالحية، خيط بين سوق العتيق والجدي.خيط بين الحريقة والمشتري.خيوط حب بيني وبينها.تحت كل بوابة عاشقان، وفي ظلال بيوتها محبون يمرحون، لحظات المتعة يسرقونها بعيدا عن عيون الرقباء والمترصدين.

دمشق لها اكثر من وجه، تمنح اكثر من متعة، ولها فوضى المذاقات.كأنها امرأة مجربة لا تعطي نفسها دفعة واحدة.ما تأكله في باب توما غيره في الميدان.ماتشربه في القنديل يحملك الى سماوات غير التي تجدها في قصر البلور.ولكي توغل في تفاصيلها يلزمك خريطة عتيقة ودليلا.والطريق معبد بالاسئلة.

كلما جربتها كلما اكتشفتها من جديد، فهي ترتب اجزاءها في الليل.تضع المساحيق، ترجّل الشعر، تضمّخ ثيابها بالعطر، وتنام هانئة على حلم الفارس القادم بحصانه الابيض.بعد عشر سنوات رأيت دمشق كما لو انها عصية على الفهم والتأويل والاحاطة...هل هي اليوم اكثر نزقا وجموحا؟

تفيق باكرا وتوقظني بأياد خشنة، اصابعها من اصوات وجلبة وروائح، حليب وغاز وبصل، خبز ساخن ومخضرات، وزعيق اطفال ذاهبين الى المدرسة.تسحب الغطاء عني بلاحرج، لتقذفني الى

يومها الطالع من ذرى الغوطة.اريج قهوة مهيّلة وفيروز تصبّح على النائمين.اجدني وسط بشر يتسابقون. ينشدون شيئا غامضا لا يدرك.انه في الهواء. اكاد المسه بيدي.ثم في زحمتها يضيع. فهي تحيل المرء كل مرة الى السؤال نفسه. ماذا انشد من مفاتنها؟

كان يصعد درجات الطريق التي تقود الى رحاب الجامع الاموي: عمامة حمراء تنتأ منها قماشة زرقاء. لحية بيضاء طويلة تتهدل على صدره. يرتدي عباءة مقلمة زرقاء. حائلة اللون. وتحتها سروال عنبق. رمادي. لايصل الى كعبيه. ينوكأ على عصى من خشب التوت. او الجوز ملساء مثل زجاج صقيل. فهوائية اللون. فحسبته شيخا من شيوخ المعتزلة قادما ليؤدي فروض الطاعة في بهو الجامع. او كاتبا من كتبة ديوان الامير. او معلما للصبيان يشق طريقه الى غرضه بصعوبة.

في مدينة مثل كوبنهاغن يعرف الانسان تفاصيل يومه والغد. في دمشق يضيع الهدف.يصبح الامتصاص هو القانون.امتصاص الضوء. الضجيج. الفظاظات.تصبح الفوضى ممتعة. تصبح الفوضى متعة بحد ذاتها.هنا ليس ثمة شيء اكيدا. لا اعرف مَنْ من الاصدقاء النفي. وما هي وجبة الطعام التي سأتناولها. ولا الشوارع التي سأرتادها. ولا المقهى المرشّحة لفنجان قهوة.الخطط تطيح بها الصدفة. المشاريع تنتهي الى خزانة يوم آخر.عصرا. اسير في ظلال الجامع الاموي. فينزل عليّ أذان العصر من كل الجهات. يجعلني اشق طريقي بين امواج اصوات حنونة. تهطل جماعية الايقاع. فأرى دلايات العنب في الازقة غابة معلقة في الفضاء. وواجهات الابنية العتيقة هياكل عظمية. هي احشاء المدينة

القديمة الآيلة الى الزوال.

غيومها في الربيع حريق. وفي الصيف خيالات..حرير واستبرق لا يدانيها احد بنسجه.دائما تشد اليها العيون.من وراء قاسيون تبزغ فجأة. راسمة بيد خفيّة اشكال نفسها.أراها وجه صبيّة تضع قناعا مصطبغا بالصفرة. سفرجلا وزيتونا. ابراجا وبوابات. خيولا وافيالا.من ذروة الجبل تهمز سبرها الحثيث. ثم تندغم..تتلاشى فوق ضاحية صحنايا.

رقعة فضائها لوحة غير مكتملة.تنتظر الاظافة دائما. حتى لو كانت بفرشة الخيال.

في مدن الشمال الغيوم سقف رمادي يطبق على الروح. لا فرجة فيها لسماء.وغيوم دمشق تمنطي الزرفة كفارس ماهر.ربما من هنا تكون الوان الكائنات اعمق مما هي عليه في المدن الاخرى.

لا يقترب من دمشق جبدا الا منْ فارقها ثم عاد.الغريب يسمع لهاثها. يتحسس نبضها. يعيش غرائبها اكثر من ابن البلد..كيف؟ سرّها.لا تبوح به لاحد.

اسألها لاتجيب. وحين تهم بالكلام تغمغم وتلغز.رموزها شائكة ورغباتها حذرة.

قالت يلزمك مليون سنة ضوئية لتفهمني.

فصدّقت قولها.

السقوط

لون اسود. كثيف. يفترش السماء. غيمة من أثمد. والنجوم طيور ضوء. تتغامز على قمة الجبل. لاهواء ثمه ولا عاصفة. فالسكون المطلق ينيخ على الموجودات.اليمين ظلمة والشمال سقوط حر. سرخس وسنط وتين بري وحصان يتلوى في فراغ الزمن.القوة في انحدارها الباذخ. عارية تحت مسيل الاضواء المنبثقة من نجوم طائرة.قمة جبل مخددة. تغور في السماء مثل اصبع عملاقة وسماء دانية. قريبة وبعيدة في الآن نفسه.صخور عاقرت مرور السنين كانت تروي حكايات الماضي. تحمل طبعات الاقدام لمن مروا حفاة. فلاحون ولصوص. عيارون ومهربون. مشردون وزهاد. كانت المسالك تقودهم الي بطن الجبل.لم يتركوا خلفهم سوى حصان في لحظة سقوط. وحكايات خبيئة في تلافيف الصخور. والمشهد خال من البشر.ابتها السرطانات النهرية اسفري عن هواجسك ورؤاك. لمَ تختبئين لوامسك خلف العروق؟تتوالد الحياة تحت اوراق العليق. تنمو من الطين رخية غضة. ويتوالى السقوط جيلا بعد جيل ويظل الضوء يمسح بأشعته كائنات الارض التي تنمو كالفطر.اينها القبرة انشدي

لسقوط القوة الذي يحدث تحت باصري. انا الشاهد. الذي رأى صعودهم الى الذروة وانحدارهم منها.

يد غيمة. كتاب قديم يستسلم لخدر الذهن. لون ذهبي يحيط مسطح البياض.

صخرة محززة مثل متكأ. وغابة اللون البنفسجي ناعمة نعومة القطيفة.

الالوان محبوكة بأناقة فالاسود يحنو على البنفسجي والابيض نقطة الوصول.

سقوط حر.ينزلق الحافران الاماميان بفعل قوة خارقة. تتفلص عروق الساقين وتنصخر العضلات.تنبثق اشعة بصرية من العينين المذعورتين. وهما تحدقان في الهاوية. عينان لوزيتان مضمختان بالذعر. في الوديان الكثة الشجر. ثربان اقدارا مرسومة مثل خرائط البحار.في الشجر. في الطيور. المتوحشة التي تنتظر الساقطين. وفي السرطانات النهرية والقبرات المنسوجة من الضوء والهواء.عروق المرجان وحبيبات الصخور التي كنمتها الريشة عن الانظار.حصى صغيرة تندلق من تحت الحوافر ثم اختلال في مركز الجسد الحي يدفعه دفعا نحو المصير.يشع الجسد من الرعب. بالضوء يصبح نجمة ارضية. تنثر اشعتها على الجبل والجذور والهواء الصانت والليل البهيم.لكن السقوط لايتوقف. فقد نأت الارض وغارت السماء في بهوها العلوي وصار الهواء نفقا يقود الى الاسفل.

هي لحظة منذورة للتأمل. مختلطة المشاعر. فيها رثاء وفرح وتشف. فيها اسف ان يكون المرء شاهدا على موت. على تمزقات

عميقة في خارطة وضعت منذ آلاف السنين. لحظة خارج الزمن.

يبتدئ السقوط فجأة من اختلال بسيط في التوازن ثم تأتي الهاوية. مستفرا.ومابين القمه والقعر انحناءات الصخور وجسد يعافر المه الفذ.الارجل. العنق الطويل. العينان المغمضتان على مشهد الموت. الروح التي في طريقها الى السماء. كل ذلك سينسج القبلة بين الجسد والنصل. صلادة الصخور ولدانة الحياة.القبله التي يتعانق فيها الموت والحياة. الالم واللذة. الارتفاع والهبوط في ليل اسود كثيف يفترش خيال رجل يمسك فرشاة بليلة بالزيت.

رسمة على جدار

وحيدا. دخلت الزقاق. من ساحة السوق.كان معتما. السقف مغطى بالخشب والاغصان والملاط. جداران يلتمان حتى يصعب النفاذ عبرهما. دبيب فئران صادر من الاعلى. وعطن يواجه الداخل. ويأخذ بخناقه. يداى تكادان تلمسان العوارض الخشبية التي تغطي جداريه. وكانت العوارض مشققة تكلس عليها الغبار وبقايا الحشرات.الابواب قديمة من الخشب او الحديد بعضها مفتوح وبعضها مغلق.من الابواب المفتوحة رأيت ادراجا ضيقة تصعد الى الاعلى. بينما تدلت من السقف انسجة عنكبوتية طال على وجودها الزمن.تتدلى في الفراغ المعتم او ترتبط فيما بينها بفوضى كبيرة.كان النور الخفيف القادم معي من الخارج يضيء قليلا خيوطها السلكية. يحولها الى غيوم ناعمة بحرّية الاشعاع. النور الخفيف يكشف في تلك الانسجة عقدا واجساد حشرات ميتة وعيدان مسودّة وتخاريم هندسية توحي بالبراعة. لاتنسجم مع فوضى الزقاق والركام المتناثر على ارضيته.

اسلاك وعوارض وابواب مخلعة ومسامير صدئة دفت لاغراض لم

تعد مفهومه.ستائر وضعت لتخفي ثقبا او بابا او فتحة تؤدي الى مكان سرّي لايعرف.أحسست كأني انوغل في الزمن، او في باطن ارض لاتنتمي الى هذا المكان. اذ راحت اصوات السوق تتلاشى. قليلا قليلا. مع كل خطوة اخطوها.رحت اسقط في سكينة غامرة. وانا امشي بقدمين وجلتين في هذا النفق. الذي لايشبه الانفاق والكهوف التي دخلتها طوال حياتي.اين انا. وفي اي العصور، ومن من الحكام يترع على العرش في هذا الوقت؟والعتمة تزداد في طريقي والسكون يعوم على كل شئ.انغلق الزقاق خلفي بالسواد ولم اعد المح اي نور. لقد توغلت في مكان لايشي بهوينه. وعلى حين غرة وجدت نفسي وسط بقعة مضيئة. يسقط نورها من فتحة في السقف. ابرزت سماء زرقاء صافية الزرقة. جامدة. لاتعبرها طيور ولا تمر في مسطحها غيمة. كأنها بئر لاقرار لها.لكن سرعان ما تعلقت عيناي بما وجدته امامي: بلاطة واسعة. ضخمة ملتصقة بالجدار. ذات الوان غامقة مضيئة. يحيط بها بلاطات عتيقة. عارية. منقّرة في بعض اجزائها. تروي مرور حوافر الزمن على مادتها. كما لو كانت اطارا لتلك الرسمة المنورة. زادت حدة التناقض بين عتمة المكان والضوء الساقط من تلك السماء البئر. غير الدالة على زمن.

انظر الى العمق. الى سطح الرسمة. وراء الاشكال. فألمح سماء اخرى. زرقاء منشحة بغلالة من غيوم او ضباب. في اقصى زاوية منها بقعة بلون اصفر على اخضر مزرق. كأنها سفينة بعيدة او شبح مدخنة لسفينة غارقة. كانت تروم الهروب من اطار تلك البلاطة المؤطرة بخط ازرق غامق.نزولا من تلك البقعة. وبخط منحرف الى يسار البلاطة. نراءى وجه صاف. في تقاسيمه حمرة.

عينان وحاجبان مستقيمان. فم مزموم وذقن لاتبين. مندمجة في السماء البحر. لا يرتكز الوجه على جسد. ولاتسنده ارض. هائم بين الغيوم في سلام البلاطة التي تركها شخص ما خلفه. البنا. نحن الابناء. المشردين في بياب الالوان والافكار والامكنة. المهملين الذين لا يسأل عن مصائرهم احد. لنحل ونفك ونقرأ رموزها وخطوطها. الوانها ومغازيها. نفرح لها او نتألم. نتأمل او نمضي عابرين بعد رؤية لها خاطفة. او نسافر معها مثل سندباد البصرة.انزل مع الخط مرة اخرى. امتطيه الى الاسفل. سابحا في مويجات اللون وهدأة النسيم. حيث الجسد المدمى. المرأة الممددة على برودة البلاطة. المبتورة الملامح.كانت تستلقي بإستسلام. الثدي الايمن منها مع الصدر قطعتهما سكين حادة. لم تبق وراءها سوى ندب حمر اثرا لجريمة او عقاب. والجسد وردي. مكتنز الارداف. والسرة نقطة حمراء تسبح على مثلث كث الشعر. معتم المكان. مختبئ؛ بين سافين مضمومتين. كانا يدافعان ربما عن تلك العتمة. رأس مقطوع وثدى غائب.

وبموازات الجسد. نتأ ذلك الهرم. جذره في نهاية البلاطة السفلى وأوراقه في عمق الصورة. فكرة مجنونة لرسام يعيش غيبوبة التاريخ. او طفل يلعب في الوان. او حالم يغتصب الاشياء المتنافرة ليبني منها برج عجائب لايعرف حتى هو مغزاه ومعناه.القاعدة رأس لونه وردي. مستطيل ينتهي بقبعة دائرية مؤطرة بالسواد. وفي نسيجها ظلال من الاحمر.العينان كبيرتان تخلوان من الحياة. شقان هائمان في فراغ غير مرئي. والفم شقوق مستطيلة. مدبوغة باللون الرماني. كأن الشقوق نقاب. وكأن الوجه وجه فرعون ينظر الى رعيته الغائبة. انتظارا للقرابين والصلوات المقدمة

اليه.يحمل الرأس مزهرية ضخمة. قاعدتها عريضة. دائرية. زرقاء. مع بقع وندوب وخطوط اشبه بأحرف لغة مبتة. لها مقبضان من الجانبين. وفوهة ضيقة اطرت بخط عريض لونه ابيض. وبين مساحة المقبضين. مستطيل ناشز الالوان.رقاقة من الذهب. مشققة السطح. بقعة حمراء. وخضراء. واخرى شبيهة بالعين. تنظر الى المشاهد غير المرئي. دون مغزى. تحديقة فارغة. لكنها مؤطرة بخطوط رمادية سائبة. تتناغم مع الاحرف البارزة في قاعدة المزهرية.

احسست بزفرة خفيفة صادرة عن البلاطة. ريح رخية كادت ترفص لي شعرات رأسي. وانبعثت اصوات تشبه اصوات امواج تتردد في بحر رائق.شممت رائحة قوافع واسماك. وهبت رطوبة خفيفة على وجهي فوجدت نفسي على ساحل بحر وثمة سفينة راسية. صواريها من خشب. قلوعها بيض تخفق بالهواء فعجبت من أمري.وتساءلت اين انا. الم اكن في ذلك المكان المعتم والبلاطة تحت باصري؟ الم تختف الضجة ويندمل جرح التاريخ لأقع على بقعة من الضوء ساقطة من سماء كأنها بئر؟لماذا اشم البحر وارتشف من نسيمه ونغروني روائحه ولما ازل واقفا امام تلك البلاطة؟

بعد تأمل عميق وتركيز فيما حولي. وأمامي. اكتشفت ان تلك المزهرية تحمل سفينة مبحرة. لها حيزوم ومقدمة وجرم ضخم. من خشب عتيق. مؤطرة بخط ابيض في الوسط مبقع بالصفرة. تبحر من غير ماء وقلوعها تصطفق في السماء من غير هواء. سفينة الحلم والطفولة. سفينة الايام وقد هدها السفر. من ميناء الى ميناء. من مدينة الى مدينة. ولا مرفأ.الكل في سفر. الصواري والقلوع والحيزوم والبشر المتواري في كثافة الالوان والهلال الابيض

المرسوم في اعلى صار او في سماء ضبابية. سفر في الذهن المحاط بالسواد الضاغط. بالاطر المعدة سلفا. والوجهة السماء البئر فوقي. المشبوحة في العلى بلا تاريخ. بلا ايام. بلا جبال تحتها.

حدقت الى الوراء فوجدته ظلمة. الى الجدران فألفيتها كالحة.نظرت الى الاعلى فطالعتني السماء. وتحتي ليس ثمة من طريق.انا في نقطة الصفر. لاشيئ قبلها ولاشئ بعدها. فما كان مني الا ان رقيت ذلك البرج. تسلقت السفينة غير هيّاب. اخذت مجلسي في زاوية منها. بين الحبال والبراميل والزيت والمقامع والمكانس والبضاعة.وجدتني سندبادا آخر يصيح بأعلى صوته. طالبا من القبطان سرعة الاقلاع.في بقعة ما. جزر ومغامرات ونساء. جواهر وصندل. بهارات وبخور. والوجهة....

ليلة دمشقية

اقف في قمة الجبل. غصنا من بلوط او سنانا لصخرة. جبلها اجرد.أتامل بالمعشوقة. منسربلة في اهاب الليل. دمشق الملونة. ابنة اليوم. والامس الغابر. التي عاقرت مرور السنين جبلا بعد جيل.لوحة ملونة. صاغتها البيوت والمساجد والكنائس والحمامات. ابرز تفاصيلها القباب بشبابيكها المربعة المنورة. باللون السماوي. ومآذنها التي تنتهي عادة بأهلة. وثمة نور. ابيض يغسل قواعدها المستطيلة. شبابيكها الشبيهة بأزهار برية تنتهي بأقواس. مصبوغة الزجاج بالاحمر والاخضر والاصفر. الجزء العلوي منها كأنه مراوح ريش. والسفوف خطوط مستقيمة وبقع هندسية التكوين: مثلثات ومستطيلات ومربعات منزاحة عن امكنتها.

كشجرة أرز لها آلاف العيون والآذان. كنت منزرعا بين الصخور. وجودي عيان. باب نوما صليب طويل مذهب مرشوش بقداس الاحد. ناعم الملمس لكثرة ماتبركت به الايادي.أزفة مليئة بالحانات التي تقدم الانبذة. وصبايا يضحكن للمارة ودغل بردى الملئ بالحباحب. سوف ساروجة طيوره تطلق اغاريدها موسيقى الارواح التي لم تر

النورباعة جوالون وشبابيك عتيقة لماتزل تحتفظ بزخرفها الخشبي.

القيمرية لزجة بالابيض. لاتبصر سوق البهارات لاتصل روائحه الى الجبل. الغوطة فوح رز يسلق. عفن سواق جافة وطيور في اعشاشها. وساحة المرجة اتذكرها دائما على شكل جعبة واسعة لحاو بأمكانه ان يخرج منها دون سحر. افاعي الحمام والبط والارانب. زنابيل الفستق واللوز. جرار الفلفل والاسكنجبيل والقرفة.عاهرات يدرن من فندق الى فندق. بصارات يستقرئن الخطوط في خطوط الكف.اسباخ كباب ومعالبق تنث روائح حريقها الى انوف السابلة واطباق ملونة من الحلويات الدمشقية.

شلالات ضوء تسيل امام الابواب. عتبات من الاسمنت مغسولة بماء الزهر.مهرجان فرح يغسل للمارة في ازقة الليل اقدامهم المتعبة. ظلمات هناك وعتمات بعضها رديف لبعض.كلها تكون خلفية جذابة لبيوتها ذوات الطابع العتيق.فوح الياسمين يتعرج من طاقة الى طاقة. من منور الى آخر. يدغدغ انوف الساهرين والسمار. وحين ادخل في زقاق من ازقتها لا اخرج. اتيه في حكاياتها ومعابدها ومنعها السرية ومباذلها. ادفن وجهي في صدر صبية متذورة للقبل. وآلاف الوجوه تتطلع من خلف الشبابيك. تسامر بعضها البعض. تقبل بعضها البعض. وانا المتوحد في ليلها. سكران من رعشة الليل والسماء التي تظللني.

الشيخ محي الدين يعانق السماء. هائما في تعاريج روحانيته. يهدهد البيوت اللاطية في سفح قاسيون. هنا تحت قدمي. بماء القداسة. بعد ان امضه الوجد والتوق الى خالق الكون.نور الانوار. الذي وسع كرسيه كل شئ.دخلته مرة فأسلت على ضريحه دموع

الوجد. والغربة. والتوق.سكرت من دون خمرة. خاطبته قائلا :جئت الى فينك. فأذا الشجرة التي اقف تحتها تمد لي اغصانها معانقة.

قدود حلبية وموالات دمشقية واناشيد مواجد واغان راقصة. تبثها في قلوب عشاقها. اسمع ويأخذني الوجد. انمسح بعتبات اقداسها. المح في تخومها. من الغوطة او الربوة. ظلمات كثيفة. تنبثق منها انوار فلاحين وقرى بعيدة ومحلات لعوالم لماتزل ساهرة.أريح القهوة يفعم انفي وشهبة الاطعمة تغازل احاسيسي.الشوارع سود مثل ظلالها الليلية. والفراغ لصوص متأهبون للانقضاض على حيوات ابنائها.الشجر لايبين. والحمام هاجع في اعشاشه. وأنا بين نوم ويقظة.لقد تأبدت دمشق في قلبي. تذوقتها. شممتها. نمت فيها.اصبحت بضعة مني.خيال الحبيبة ثابت في الروح. لن يمحى.

المشوهة

ايتها الكلمة المعلّقة فوق كل شئ، الداخلة في كل شئ، التي حفرت كلماتها على الضوء والصخور، على امواج البحر وعصف الرمال، على بشرة الصبية وجلد المامـوث، المتنائية، القريبة، اصل النور والظلمة المنبثقة من الزرفة، في اعلى نقطة، محتجبة عن الابصار.

الاصفر مجرة ضوء تتوالد منها نجوم مثل فقاعات، غازات وذرات وذبذبات،دفق تسيره قوة كامنة، فقع الضوء دون مصدر، حل الظلام واضاءت الاكوان. ايتها المسافات الغامضة بين نجمة واخرى من اشاد هندستك؟من سماك تبّانه، زحل والمشتري، الزهرة والمريخ، ولبس ثمة تدرجات في الوان المشهد الذي امامنا، لاظلال ايضا،المجسدات لاتبين، ان هي الا التماعات ذهنية من بقع نورتها الكلمة فتحولت الى زيت ملون.

حين تغيب الشمس تختفي الظلال، نحن في حضرة البدء، حيث كل شئ يتوالد من عناصره الاولى، ذراته التي لاترى،ان هي الا انفاس العزة تتجلى في مراياه،حضر فغابت الموجودات، تجلى فأضاءت، نور فوق نور، اينها العناقيد المتفجرة في الاعالي،من خلقك من

لاشيء؟الكتلة السوداء في الاعلى رحم كوني تتوالد منه الكواكب، كوكب لبني البشر وآخر للكائنات اللطيفة، وثالث لمخلوقات اشد كثافة في كل ظلمة بقعة من النور، والطريق الى النور ينفذ من القاع ثم يمضي الى رحابه، سقط البشر الى القاع فوصلوا اليها، تلك المسماة كلمة.

البزاقة تروم تسلق الجبل، في سعيها لاتهن، والسفوح خضرة للارز والتوت البري وعساليج العنب، الراقصة مع اجنحة اسراب النحل،والحصاة تمتص ماء البحر دون ان ترتوي، حتى يتحول لونها الى السواد،وبضعة من الحروف توسع معانيها لتحتوي ذلك الكون.

حول الاصفر ضياء وحول الضياء زرقة وتحت الزرقة زرقة اشد، تمضي الى الاسفل حيث اللون البرتقالي يتوهج قرب بحيرات المياه ترفرف روح على الموج، كلمة او حمامة او خطوطا مجردة تنث الوحدانية على شكل امواج بنفسجية وزرقاء،موجة من استبرق واخرى من قطيفة وثانية من قناديل بحر لازورد.

نزل الضوء من سمت الالوهية فلم نمسكه بد،نزل الضوء الى عمق الوجود فأشعل الكائنات بروح الكلمة، البحر قطر من كتابه والمجرات خلائقه، هو الاول والآخر،ماقبله ليس بدرك ومابعده ظلال المعاني، والارواح ضربات زرق في ملكوته،وجود موسيقى، الوان تتناغم، تندمج وتنفصل، تتداخل وتتزاوج، مشبعة آذان سمّاعها بفيض من نشوة، نشوة الروح وهي تحلق بعيدا عن جسدها المادي، المحكوم بثقل التراب.

نفذ الضوء فلا تمنعه، شع فلا تحجبه، لانه من تلك الكلمة المعلقة فوق كل شيء، الحالّة في كل شيء.

الفتاة والحمام

تأنيك ملهوفة، بعينين سوداوين يشع منهما الشوق. وقبل ان تدخل الغرفة تتوقف عند الباب وتحدق الى سقف الممرلتتأكد من حماماتها كما تسميها. هناك فوق صفائح الحديد التي كانت تظلل مدخل الغرفة.لم تمض سوى اسابيع على انتقالك الى هذا البيت حين اكتشفتما العش. وكانت تلك الليلة بداية لاهتمامها بتكويرة الفش المنزوية بين صفيحتين.رأيتما الذيلين الرماديين بارزين من الحافة، وتلك العيون المدورة الصغيرة وهي تحدق بغرابة في هذين المخلوقين اللذين يجلسان في الممر يدخنان ويتأملان بالسماء. ونادرا مايتبادلان الحديث. هي صامتة دائما وانت مشغول الذهن بحيانها السابقة التي تبوح بها بنتف من الاحداث والشخصيات والازمان المختلطة.من فتحة الباب تتراءى لك النقوش الجدارية وكأنها من عالم آخر لايتآلف مع الكآبة المسيطرة عليكمامزهرية من الزجاج الشفاف ملبنة بالماء تستقر على طاولة مستطيلة. تضم باقة كبيرة من الازهار. تحيط بها اغصان مورقة تدلّى قسم منها على الطاولة وتراص القسم الآخر مع الازهار الواسعة التويجات ذات اللون

الابيض. وهي تجاور ازهارا اخرى تجمية القلب مزرفة المدق. بتلاتها صفراء اللون. زهور حقلية من النادر ان يراها المرء في محلات الورود. ويسأل روحه كيف فكر الرسام بهذه الانواع الكثيرة من الازهار. لابد ان يكون انسانا منحدرا من قرية من القرى. محاطة بالحقول.

حين تفيق صباحا. تنهض من الفراش متثاقلة. كسولة. بعينين منتفختين وقبل ان تمضي الى الحمّام. تقف في الممر وتلقي نظرة على العش.عادة مايكون فارغا في الصباح فالحمامتان تمرحان في حديقة مجاورة بمثل هذه الساعة او تلتقطان شيئا من الحبوب في حدائق المدينة.تراقبها بعينيك خلسة. ترى نظراتها الجادة المصوبة الى الاعلى. وتحرفك الرغبة لمعرفة مانفكر به هذه المرأة المخلوقة من اطياف شمسية وجداول مياه وخمرة ونيكوتين. حتى صاحت ذات صباح بصوت حاد منتش مبشّرة اياك بوجود بيضتين في العش.شاهدت عينيها كيف شعتا ووجهها الخالي من الملامح كيف تورد بالفرح. وأفترت عن ابتسامة كشفت اسنانها غير المتناسقة.

كنت تحدق بالطاولة التي امامك. بأسراب الحمام المحلقة في خيالك. اوتراها في الجدران والسقف والخشب العتيق. وفجأة تتعلق عيناك مرة اخرى بذلك الجدار المنقوش بالالوان. على شكل محراب يحيط بالمزهرية. وعساليج من النباتات تتلوى على مساحات من الزرفة الخفيفة. ثمرة على شكل طاووس. ذيله يشتبك بثمرة اخرى لها هيئة ديك عرفه اصفر. افحوانة زرقاء تداعب باطرافها ارجل تنين صيني يلتهم طيورا وفاختات وارانب من اوراق.خلف المزهرية تماما وعل مهيب. رمادي الوبر ينأهب للقفز يمد بوزه في اجمة اشجار

وارفة. قرناه احمران. متشعبان كما لو كانا شجيرة حمراء في طريقها الى الذبول.كلما طافت عيناك في المشهد الذي امامك. وتعبت من تفاصيله تسحبك تلك الوردة البيضاء اليها. كما لو كانت واحة تطفئ ظمأ افكارك المتوهجة توهج نار في دواخلك.تنسى العش ويختفي عن ناظريك. الا حين ترى الذروق تتكاثر على ارضية الممر. تتأفف بصوت مسموع وتمضي الى الحمام لتجلب خرقة وماء ومكنسة تنظف البقع البيض وتقول لها حين تأتي. لابد لي من التخلص من هاتيك الحمامتين. فتخزرك شزرا وتنتفض بغضب ثم تسألك كيف. فتخبرها بالحل السهل. في الليل ما ان بناما حتى تنسلق نحو السقف ومثل ثعلب متمرس على الصيد تلتقطهما والباقي معروف.تملؤها الفكرة بالرعب وتسألك والبوص. فلا ترد.تتجاهل السؤال وتمضي الى الفراش لتستلقي جنبها او نعدان مائدة الليل. فالنجوم التي تبرز من فضاء الممر تنتظركما. والعتمة البعيدة. عتمة مدينة في طريقها الى النوم تغريكما بالسهر. وحيدين. عاشقين. كئيبين. كحمامتين.

ومثل حمامتين تفيقان متعانقين على اول الاشعة وهي تنسل من الشباك. فتتبين لعينيك تلك السجادة المعلقة على الجدار بتفاصيلها الهندسية. ذات الخيوط الحمر التي تتشكل من معينات داكنة. تحيطها خطوط مستفيمة بيض. او مثلثات بيض مثل سكة قطار تحيط بها مثلثات سود. تتمركز عليها تكوينات تلك السجادة المؤطرة بالانحناءات السود والفيروزية. ثم يسقط بصرك على الابريق العتيق الذي جلبته لك ذات يوم من سوق الجمعة. فخار رمادي خشن الملمس كتب على سطحه كلمة الله بخط نسخ

وبحت الكلمة كلمة اخرى لم تستطع قراءتها لان الكاتب شكل منها جسد بطة بلا رأس. تتخيله عند انهمار الاشعة يميس على الفخار. به رغبة للمشي فوق تلك السجادة المعلقة.او تدخل معها الى تلك الجنة المرسومة على الجدار. تتبهان بين اشجارها وسواقيها. تطاردان الفراش والطيور وترقصان في سيل الانوار الدرية. هي حورية وأنت عاشق. وتنسيان الماضي. ماضيكما الذي صار عبئا لكليكما. وكلاكما تودان الخلاص منه. او نسيانه على الأقل.

شعرها اسود كثيف. يظلل رقبة نحيفة. ووجها شاحبا صافي الملمس لكنه مثل جلد مشدود خال من الملامح.كنت الاول هذه المرة. الذي لمح الطائرين الصغيرين المرغبين وهما بمدان رأسيهما من حافات العش. رأيت المنقارين الاصفرين والعيون العائمة وشهوة الطعام المسيطرة عليهما. فركضت لايقاظها. وجررتها جرا من الفراش لترى الاعجوبة التي لاتحدث كل يوم. الحياة وهي تتوالد من سوائل كثيفة وكروموسومات ونفحة غير مرئية. في اكثر الاماكن غرابة.كادت ترقص من الفرح. راحت تثرثر عن مشاريعها القادمة وكيف ستهتم بهما وتطعمها الحبوب وتسقيهما الماء. حتى اوشكت ان تمثلي غيرة من حماسها نحو الطيرين. قالت نحتفل الليلة. قلت كلا. لقد رأيت آلاف الطيور والفراشات والزنابير والبقر والحمير والحشرات وهي تدفع بمخلوقاتها الجديدة الى هوائنا الملوث بالنايتروجين والامونيا والنترات والبنزين والبلورات البلاستيكية والفقاعات البنزينية المتنقلة من شارع الى شارع ومن نخلة الى اخرى ومن انف الى انف.سيمثلي ممرك بالبراز وروحك الانتظارات التي تقضيها بين الجدران مترقبا رنين الجرس. تأتي او لا

تأتي. تظل تسأل نفسك. كلما تجاوزت الساعة موعدكما المحدد. وتسبح بك الشكوك الى عالمها الآخر المحجوب عنك ببراعة. وأيامك تراكم الشكوك والاحتمالات وتلقيك الى ضفاف السجادة والمشهد المرسوم والحمام القاطن هناك في السقف. وأنت تراه يكبر تحت باصريك. يكبر كلما نمت الشكوك وواصلت الحفر في طبقات هذا الانسان المصنوع من اوهام وكوابيس ليلية ومنامات. هذه المرأة العصية على التأطير.

قلت لها لم اعد اطيق الغازك. اريد ان امتلكك. ماضيك وحاضرك. افراحك واحزانك. الساعات التي قضيتها مع ناس آخرين. اريد تفسيرا لكل تعبير يرتسم في عينيك وأنت ساهمة تحدقين بالنجوم او بعش الحمام ذاك. وكل الابتسامات الغامضة التي تطلقينها في سهوب وجهك. وكل القصص المختبئة خلف تنهيداتك وأنينك الليلي.كانت تنظر اليك ولاتجيب. تشعرك بالعجز. تركمك في زاوية لامخرج منها. وحين تفتق صباح. من تلك الصباحات الالبفة. تكتشفان ان العش فارغ. طار الحمام من العليه. سابحا في بحر السماء. لاشجر يؤويه ولا جهة تقوده. حر خفيف ينزلق في الهواء الذي تتنفس. في مدينة مفتوحة على الجبال. ورأيت تعبيرا حزينا على شفتيها السمبكتين. وانفاسا من الغيض نحوك تسربل جسدها النحيف كله.

قالت سأمضي دون رجعة. لن تراني بعد اليوم.قلت لها طارت الحمامتان ولم يعد ثمة ما يجمعنا.وكانت الغرفة تعتم يوما بعد يوم. والزهور المرسومة في الجدار تبهت الوانها. تتراكم الملابس في الزوايا وتتبعثر الفصاصات واعقاب السجائر على الارض. وعيناك

تمسحان ذلك الابريق بمشاعر من الاسف والغضب والوحدة.لم تعد تحدق بتلك السجادة ولا تدخل تلك الجنة المليئة بالوعول والاغصان والبط البري. وراح الغبار يترسب على الخيوط وينسج طبقة بليدة رمادية على الاشكال الهندسية. وروحك الهائمة في غرفة كئيبة مثل طيف.

العش هناك. عبدان نافرة وريش وذروق متراكمة وفشور بيض مهشم.لكن ما ان يعتم النهار حتى ترى العش وقد ضم حمامتين متعانقتين تنظران اليك نظرة مستفسرة. فقد اختفى من ناظريهما ذلك الكائن الآخر ذي الشعر الطويل. بعينيه السوداوين المعبأتين بالحزن والوقاحة والهزيمة والتحدي.يسألان لكن لاتجيب.لم تعد ثمة كلمات على لسانك.لم يبق سوى تلك العادة. تغبق صباحا ما ان يتسلل الضوء الى الفراش. تمد يدك الى جانبك علها تقع على جسد دافئ. او تلامس شعرا خشنا او بشرة ملساء. تنهض متثاقلا وتمضي الى الباب ثم ترفع رأسك نحو السقف. الى كتلة العيدان والشوك والخيوط المتخفية بين عارضتين.لا شيء يحدث وليس من جديد. حتى ذلك الصباح الغريب الذي افقت فيه معتدل المزاج. صدرك مليء بالزهور والاشجار والمياه والضباب. جنة احاسيس لم تدرك كيف نمت بليلة واحدة.

كانا هناك. برأسيهما الصغيرين المدورين. وثمة زغب ناعم ابيض يبرز من الريش الغض. العيون ندية. مدورة. تنظران الى ذؤابات الاشجار ومداخن البيوت وتلك البقعة المنوهجة السابحة في بحر ازرق.لم تصدق ماتراه. المنقاران الاصفران. والذيلان الصغيران يرفان في الهواء. صوصآت خافتة. نداءات حب او شوق لحضن دافئ. وينبوع

تحسه يتفجر في داخلك بمياه رائقة تسيل في اطرافك ونبل جفاف الجدران. تسقي الزهور الذابلة على الجدار وتغسل التراب من السجادة الملونة. ولا تنتبه لنفسك وانت تدخل الغرفة راكضا. تهم اخبارها بالمفاجأة. المعجزة التي تحدث في السقف. لكنك تتوقف بغتة مثل مشلول.الفراش فارغ. الاغطية مبعثرة. والشباك مفتوح على الصباح. وغيمة صغيرة من كلمات. لم تعد تتذكر منها سوى جملة واحدة. لن تراني بعد اليوم.

زهرة

طويلة مثل رمح، شائكة كالحبيبة. نوبجانها موسيقى تتموج في الفضاء الابيض. حيث تطير النوارس هائمة، متجمعة، تبحث عن سر الخليقة. في هذه الزهرة سر الخلق. والكون يختبئ في النويجات والاشواك.الزهرة كون. والزهرة زهرة وردية اللون. ترف عليها نحلة ضخمة رعّاشة. والاوراق فراش.فراشة حمراء تتخلل جناحيها بقع بيض. فلامة من جمان. فراشة جناحاها فوسان سميكان، اسود وابيض. يلتقيان فيكونان قلبا يرتشف الهواء.فراشة زرقاء في منتصفها بقعة بيضاء تحيطها نقوش على هيئة دوائر غير مكتملة. شفتان منفرجتان قليلا للتقبيل وارتشاف الحبيب. ثم يصعد الساق الى الاعلى، شاقا طبقات الهواء، خيلاؤه لا تحد، ليكون زهرة، ينزل الى الاسفل، كله توق لافتضاض التراب، يتفرع عروقا وشعيرات مستقيمة.في مكان ناء، خلف زهرة الخيال، تلال مضببة، غابات صنوبر ودبية متوحشة، سناجب تتقافز من غصن لآخر، امداء شاسعة تهيء نفسها للمغامرة والكشف.ليلة اثر ليلة، كانت تزوره في المنام.

يفيق على روعة جمالها الاخاذ. الضوء يرقص بمرح خارج النافذة. وفي القلب احاسيس سامية. فالروح صارت صنيع تفاصيلها الموحية.زهرة غريبة الاطوار. حية. متحركة. تملؤ فضاء الحلم. الاوركيديا. لسان النور. جوري وياسمين. تفاح أم ليمون؟كان يبحث عن المعنى في كتب تفسير الاحلام وقراءة الطوالع والرموز. الابراج والافلاك. دون أن يستدل على شئ. فهي تخاتله بغموضها وتستهويه بغرابتها. فكيف يمضي في الوصف والكلمات نائية؟

يتحلب الماء من مسامات التراب. يشكل قطرة من ملح وغرين. يطغي بفيضه على الشعيرات المتخفية في ظلام الارض. ينفذ الى الانساغ ببهجة طاغية. الى الاعلى يقول النسغ لنفسه. فثمة شموس واوكسجين وسماء وطيور.

الزهرة مركز الصورة. هي البدء للنظر وهي النهاية للحلم. الراقصة النحيفة محاطة بالوصيفات. مخلوقات الاشواق الطائرة. تنقزم او تتعملق في وجودها الشفاف. رجل يعسوب. عظاية. شجرة كمثرى. فأرة تعرش على جسدها وريقات تنتأ منها وريقات. لم تنمُ في حديقة ولم يضمها بستان. وريثة الجمال وشيعة القلوب الباحثة عن الود.

وصيفات من برقوق ومشمش ودراق. يعصف بهن نسيم هاب من ارتعاشات اجنحة فراش ونحلة واحدة.نوارس سود كأنها قلامات أظافر مقذوفة من غيمة غير مرئية.ليلة اثر ليلة تضيء احلامه. تبزغ مثل طيف في بحر نومه.كل مرة يحاول ان يقرأ رموزها فلا ينجح. يضع الفراش مع الزهرة. والنوارس مع التلال والنحلة. يعجن الجميع بالبرقوق والدراق والرجل اليعسوب. والارض البرتقالية

الناعمة.يتشكل من كل ذلك حلم لاغبر. سرعان مايزول ما ان تتسلل الشمس الى الغرفه.

نافذة عريضة تنفتح على شجرة تين. وذلك العش المبني من الشوك. الحافظ لما يزل دفء ببوض اصبحت طيورا. وبيوت مغلقة على اسرارها. ملابس معلقة على المشجب دون انتظام. طاولة صغيرة عليها فنجان قهوة. وسجائر وأوراق منسخة. وشراشف مغضنة اثقلها النوم والحلم. لفظه الباب. ورعشة من حنين في الصدر.الوحدة تسبح خشن يضغط على اعضائه.السكون كائن لامرئي يتغلغل بآلات جارحة في كل زاوية من حيائه.

رحم: متاهة: فراغ

شاهدة بيضاء باردة. وشجرة مقطوعة.جسد انسان عاثت به قوى الشر خرابا وتقطيعا وقصقصه وجزأ. غائب الملامح كالشاهدة. بداه كفتا عن العمل. رأسه في مكان آخرحيث لا رأس لن نجد أيادي يكف الفعل ما ان يتوقف الجزء الغريب فينا عن الوجود.

كأن الشاهدة تحجب مقبرة. وكأن الجسد يخفي وراءه مذبحة.

قال الرحم للفراغ. ان ما بيننا متاهة. خرج الطفل من البيت. تاه في شوارع مكتظة بالناس والعجائب. سمع حكايات. جرب الاطعمة اجمع. ضاجع النساء. سبح في الانهار والبحار. دخل مدرسة وخرج من اخرى. وفي المساء احس بالتعب. فرجع الى البيت كهلا. ينتظر رخاوة الفراش. لاشئ في رأسه سوى الفراغ.

الشاهدة والجسد المقطوع. يتكئان على برزخ فاصل بين مساحتين. بين وجوه لاملامح لها. وجوه المشردين والجنود تحت الرمال. والتوابيت بلا اسماء والأشلاء في مشرحة. في ذلك البحر الكبير. الشاسع من الموت.موت يمتد بين نهرين وجبلين وخليجين وصحرائين. لون واحد وموت واحد. وحين يطغي على الكائنات سرعان

مـا يصـمـحل وتتـلاشى. تسـقـط في السـواد الذي يفـتـرش الفضاءات،يصبر بياضا على شاهدة. غصنا لشجرة. وجها لاتعابير له. لوحة مـؤطرة بأربع جدران،خطوط وبقـع وفراغات ومـسميـات لاتعني شـيئـا،الروح وقـد فـصدها اليـأس حـتى أخـر قطرة من الدم. الابواب المغلقـة ولا منفذ. السبـل وقد تلاشت في صحـاري من الرمال. كل رملة تبـشـر بالضيـاع والتـلاشي،رحم ،مـتاهة. فـراغ،لو رملة هتـفت لمبدعها شجوا....

أُمّي

لم يكن نائما حين سمع طرقا خفيفا على الباب. ظن للوهلة الاولى انها واحدة من خيالاته التي يعيشها مع روحه كما لو كانت حقيقة. فظل متلبثا في تخته الخشبي منتظرا الطرقة الثانية.فتح عينيه على سعتهما في السماء الصافية. المزينة بقمر واسع الاستدارة. يلتمع اكثر من ايما نجمة مجاورة.حدق الى النخلة في وسط الحوش وبفعه النور المفروشة على سعفها المتهدل الذي يكاد يلامس الارض. سال بصره نحو الدهليز المعتم الذي يقود الى الباب الخارجي. حيث أتت الطرقة الاولى.كان خشبه مشققا. لكن لايبين خلاله اي ظل او جسد. من هناك ينتظر الصوت. الذي لم يلبث طويلا حين جاءه خافتا. مترددا.لم يشك هذه المرة ان احدا ما هناك. لكن الوقت كما قدّر لايسمح بزيارات متأخرة. وهو لاينتظر صديقا معيّنا. نهض وبداخله قليل من الخوف. خوف مجهول لا يشف عن كنهه. فالليلة ليلة اوهام وخيالات وغرائب. ابتدأت بصوت بومة سمعها في سعف النخلة. وعواء ثعالب في التخيل و الحقول البعيدة. وهذا السكون العميق الذي يكاد ان يسمعه. يتفاعل في

الدروب وبين البيوت وعلى حافات السواقي.

لبس حذاءه الخفيف وأتجه الى الباب. وتسارعت دقات قلبه. وكان التردد يثبط خطواته عن قطع الدهليز.لكنه استجمع شجاعته ومد يده الى المقبض. اداره وسحب الدرفة الثقيلة لينفتح مشهد الساحة امامه.مشهد فارغ حال. كما عهده قبلئذ. الارض السبخة المسواة بعناية. وفي طرفها ضفة الحقل الذي حصد القمح منه وكان يلتصف بالبياض غب انعكاسات النور عليه.كل ماحوله ساكن. الاشجار البعيدة. الصفصاف والتوت والخروع. تقف في فضاء المكان بشموخ.لا ورقة تتحرك فيها ولا يهتز لها غصن. الطيور فيها نائمة. الحشرات متخفية. والهواء مترسب على مسامات التراب وعروق الورق الاخضر وإبر الحلفاء العضة على كتفي السافية.

لا احد اذن. فكر انها اوهامه الداخلية المنبعثة عادة قبل النوم. تحركها رفّات الاجفان وهي تنطبق على بعضها. وكهوف النوم الرخية التي كانت تستقبله عادة ما ان يضع رأسه على المخدة.احس ان ثمة نداء غريبا في الهواء. شيئا ما يمد يده قائلا اتبعني. شيئا لا يستطيع مقاومته. اطبق الباب وراءه. ودخل في دهليز الليل.. حقول وبساتين نخيل ودروب ضيقة وحيوانات ودبابات ارضية تصنع عالمها قرب اديم ارض رطبة رطوبة الصيف وانوار القمر تضيء له الدرب وهو يسير فيه متبعا ذلك النداء.مر بغابة النخيل القريبة من البيت. جذبته اعمدة النور وظلال الجذوع المرتسمة في الارض. وارتفعت عيناه الى النيجان المعتمة في الاعلى وهي تكتظ بالغموض. لكنه لم يتمهل فيها.لم يخالطه خوف من حركة الضوء والظل. الاعمدة والمسطحات النورية. انقصافات السعف وطقطقة الكرب المهترئ.

لان ذلك النداء في الهواء كان يسحبه بخفه، لا يترك له مهلة التأمل والتفكير.

لايمكن ان يكون في حلم، لان حواسه اجمع تزوده عبر استشعاراتها، بأدق التفاصيل والروائح والاصوات حوله.ولأنه يرى، ما ان يلتفت الى الخلف، بيته المشاد من الصخر والملاط، مثل علبة تحت ضوء القمر، واطراف سعف النخلة تبرز كذيل حمامة.كان يمشي اذن، مخترقا اجمات الشوك على جانبي الطريق، السواقي الصغيرة، بين الحقول، فجوات تتخلل البيوت المتناثرة، وزرائب البقر والحمير والاغنام، التي لاتبعد كثيرا عن بيوت مالكيها.دخل غابة نخيل وخرج من اخرى، غاصت قدماه في طين الواح القت والذرة وسار في طرق ممهدة، هذه القرية لايعرفها، غريبة عليه رغم انه عاش فيها سني عمره كلها.عرف اسماء قاطنيها واحدا واحدا، عدد الاولاد والبقر وانواع الملابس التي يرتدونها، بل حتى الاطعمة التي تناولوها في وجباتهم.

أهو الليل الذي الغى مألوفية هذه القرية من ذهنه وذاكرته؟يسأل فلا يجد جوابا. مخدرا وكفى، يسير دون هدف، في دروب لم يطرقها قبل اليوم، صعد قنطرة عالية على ساقية تنقل المياه من النهر الى الحقول المجاورة للصحراء، وأحس بأقدامه تغوص في ارض رخوة، انه المستنقع اذن.هذا ما تأكد منه حين شفت الارض عن بياض اشبه بالنهار، وسط المستنقع وضعت طاولة نظيفة، مصقولة السطح، بيضاء الخشب، لم يتبين في البدء ماذا يقف فوقها.اقترب اكثر واصبح على بعد امتار فقط، حيث تجسمت له، من ذلك القرب، كائنات صفها الليل او القمر على تلك

الطاولة. كي تدخل الدهشة الى روحه.الى اليمين جسد مستطيل. بوجه رجل. رأسه صغير. نحيل القوام. كتبت على الجسد كلمات بأحرف قديمة غير مفهومة. والجسد لا يمتلك يدين. عيناه صغيرتان تحدقان بإتجاه بيوت القرية.جوار ذلك الرجل كتلة اخرى بيضاء مع بقع سود. لها شكل صاروخ من الاعلى بزعانف. ومن الاسفل ريشة مدببة عريضة من الاعلى. لااثر عليها لأحبار وكأنها لم تُعَدُ للكتابة. جنب الكتلة كتلة اخرى مثل رقم طيني. استطاع ان يقرأ بصعوبة. على نور القمر. هذه الجملة: اقلب الطاولة وامض. احسها موجهة اليه فقط. لكنه لم يجرؤ على القيام بذلك.

تتجسد الكائنات الشفيفة في ضوء يضخه كائن علوي. هابط من السمت او خارج من عمق الروح. احلام مؤلفة من رموز ودلالات تستعصي على التفسير. والليل يصبح لها اطارا كي لاتضيع.

جلس على ارض المستنقع. وبدأ تأمله في مايراه. عسى ان يقع على تفسير يضيئ له تلك الالتباسات.اغمض عينيه. يسمع نبضه الساري في الاوردة والشرايين. يشم رائحة الأشن وعفن عروق القصب والبردي بعد ان بادت وحكمت عليها الارض بالاختلاط في نسيجها. دكت الاطلاف ارض المستنقع وسارت عليه مخالب. نفذت ديدان في النسيج وهطل المطر عليه وظلت الرائحة لاصقة في المكان.القرية تعرف ذلك. وهي تخاف اقتحام المستنقع في الليل خاصة. لايدري ماهو السبب.فتح عينيه من جديد. كانت الطاولة قد اختفت تماما. رأى مشهدا يختلف كلية عن السابق. اذن هو في حلم. قال لنفسه. كيف يحدث هذا. اليس القمر في السماء. واصوات الصراصير الليلية يسمعها بأذنيه. ورخاوة الاشنات تحت قدميه. وهواء الليل يعبر وجهه

بخفة محسوسة. فكيف يمكن ان يكون في حلم؟

انها بقرة دون شك. ذلك واضح من رأسها المثلث. الذي بلا عيون. وجسدها الضخم عند البطن. وذيلها المسترخي في المؤخرة. وأثدائها المتدلية نحو الارض.خلفها وتد ضخم. وحذاؤها سياج غير مكتمل من الخشب.اخدود اسود في جبهة الرأس. هوة في البطن. ودوامة تسبح في بحر الخشب. تحت بوزها الساكن معلف من خشب ابضا على شكل هلال.في الجسد المتخشب بقع بيض. وسود. لكن البقرة ثابتة لايبدر منها ابة حركة. لاتطلق خوارا ولا تنخر. لم يسل حليب من الضرع. جفت الاثداء وتصحّر اللحم.وجود مطلق في ليل. لارائحة فيه. لاتبن في المعلف ولا بقايا روث في الزريبة.هل هي رسمة اذن؟ام طيف تجلى له بقوة سحرية ليثير فضوله؟ فكر بالاقتراب منها ومداعبة جلدها وتلمس اعضائها. علة يقع على حقيقة هذا الكائن.همّ بالقيام لكنه لم يستطع.انه مربوط بنبات الى ذلك الوتد الخشبي. او ربما الى اشنات الارض وقد استباحته بآلاف الاذرع الرفيعة. ذراع لقدميه. ذراع ليديه. ذراع لحوضه. ذراع للرأس المنتصب. المسحور بموسيقى القمر وهي تدثر هذا الوجود الجديد الذي لم يحلم برؤيته قبل مضيه الى الفراش.استسلم لمصيره. وصرف ذهنه عن فكرة النهوض.

لمعت الثريا وشف المريخ. وسقط شهاب فأنار ذرى نخيل الخيال.نفذت الاصوات من غلاف الارض لتمضي الى مكمن الظلمة في الكون البعيد. وبنات نعش يبكين دموعا من جمشت.

انه اسير لعبة لقوى خارقة. فمن دون ان يغمض جفنيه او ينتبه لما حصل تبدل المشهد مرة اخرى. واذا به يقف امام امرأة. وجهها

مثلث. ضفائرها تنهدل على الكتفين. وحول رأسها هالة من الضوء. رقبتها طويلة. جسدها ضخم يتمدد على طاولة او على ارض المستنقع. دقق النظر جيدا لاحظ ان الرأس لجسدين. احدهما يتمدد شمالا والآخر يمينا. اما الرأس فله هيئة معزى. هذه اللحظة. بعينين واسعتين سوداوين. فيهما سحر. تنظران اليه بثبات ولطف.خلف المرأة المعزى قطعة صغيرة من سياج خشبي. وامام الجسد اطياف لمواليد تحبقي الاجساد.امرأة معزى يرتفع رأسها في السماء. تطوقها شمس ناعمة الاضاءة. شمس الارواح الميتة. ودوارات الشمس والازهار النامية في الحقول. وهو يحدق دون ان يقترب. فالقوة مهيمنة والسحر ساكن. وليل القرية يقطر في روحه اسرار فاطنبه.

كأنه يطل على عالم آخر تحجبه عنه المياه والاشنات. الديدان الارضية والجدران. النساء الغائبات خلف الحجب والرجال في تكالبهم على مباهج الدنيا.ينظر امامه ولايفقه شيئا. يود لو يهرب. يمشي الى فراشه دون ان يلتفت الى الخلف. وجه انثوي تجمعت في قسماته: العينين الحانيتين. استدارته. الانف الاقنى. الابتسامة التي يرتديها نداء الانثى. الضفيرتين الرخيتين مثل فراش وثير او وسادة تهدهد الرؤوس. كل هذا كان يجمع الام والحبيبة. الصبية والمرأة. الحوض والثدي. لكنه فاقد القوة. مسلوب الحركة. على رخاوة الاشنات المستنقعية. تحت قمر كامل الاستدارة.

همس الليل له قائلا تأمل اعاجيبي. فوراء كل نخلة حكاية توالدت من حكاية. وتحت تلة التبن كائنات تتضاجع وتتوالد. تأكل وتموت. دون ان ترى النهر او تشم رائحة المطر. تدرجت الوان من

الاصفر الى البرتقالي ثم الاحمر نحو الازرق انتهاء بالاسود لون جلدتي. ولم يبصرها بشر.

انتبه الى القرية، هي نفسها، القرية الاليفة التي عرفها جيدا، ودار في طرقاتها وحقولها، شرب من مياه سواقيها، ولعب في المستنقع نفسه الذي يمشي عليه اللحظة. بيوت تكمن في ظلال الخروع. بقر يلوك العشب على اكتاف السواقي. دجاج يقوقئ؛ قرب سجادات الصلاة المنقوشة بالخوص الليلكي. طرق وتخوت خشب للنوم، شخير نائمين وضباع، وثمة فرد، سافر مع سفينة الخيال ولم يرجع. بعد ان غابت الرؤى التي عاشها، وبان له مسطح البياض خاليا من الاشياء، عاد في الطرق نفسها، وبدأت الاصوات الليلية تعود الى اذنيه،عواء الثعالب وخوار البقر واليوم بين السعف، والكلاب التي تنبح على ظلها وخيالات الظلام والعتمة.احس بنفسه متعبا وهو يدس جسده في الفراش، متعبا وتائها في سر هذا الوجود.حط رأسه بتؤدة على المخدة، ولم يفق الا حين بدأت اشعة الشمس تلسع وجهه، تضئ السعف، ترسم بقعة، نبرة، واسعة في الدهليز.

كنوز الروح

بعد ان اغلقت حواسي اجمع. فالعين لاترى والاذن لاتسمع. لم البث ان سقطت في نفق الروح. غابت عني اصوات العصافير وضوضاء الشوارع. زرقة البحر ونور القمر.كانت الموجودات حولي عماء. فقدت حس التواصل مع بني البشر.صارت روحي ذئبا بريا في حفرة عميقة موضعها عتمة الارض. يمبني ليل وشمالي ليل. ولا من دبالة تكشف الاشياء. توغلت في النفق مثل ملك شريد فقد ارض مملكته ورحت انظر بعين العقل. الى ظلمات داخلي.

حسبت للوهلة الاولى انني لا ابصر شيئا. لكنني بعد صفو وتأمل احسست بغنى. لمناطق تستحق الخوض فيها والمغامرة دلتني وحدتي الى ضوئي المشع هناك. في الدهاليز والازقة والحفر التي خلفتها حياتي الماضية. وقد انقضت بين البشر. الحياة التي عشتها قرونا قرونا. ذكريات وأحداث وقصص وحكايات. لعب وحزن وبكاء وأحلام. رحلت في سفائن مشرعة القلوع وقطنت جزرا من بنفسج وصبايا سمر الوجوه.مشيت ركضت. نمت صحوت. هدني التعب فما كان مني الا ان جلست في مقام الوحدة. جبلا متوجا

بالثلج. ثم رحت انثر البصر في اعاجيبي.صحراء من الثلج في كل اتجاه. كأنها كثبان رمل. تصنع تلالا ووهادا. ذات لون مزرق فاض من سماء لاتراها العيون. معلقة في خيالي.

كرستالات الثلج الصخمة أشبه بأعمدة. تجاور بعضها البعض. ثم تتدرج في صغرها لتنمحي بسهب من البياض. يمتد مسافة ثم يقوم من الارض ليصنع قمة صغيرة لجبل خفيض. او دائرة بركانية في طريقها للانفجار.سيرتفع منها ذات يوم صهير ذهبي وحمم وشرار ودخان ينحبس في اتون الروح الباحثة عن الخلاص.امشي بخيال فذ. في صحراء الصقيع. افع على اخدود مكتظ بالعجائب. كان البياض له حجابا. فأنلبث على حافاته اتملى فيه والخوف يملؤني من اعماقه ومهاويه.حفرة هائلة معتمة. يكاد الركام الثلجي يتدلق من حافاتها فتوقفه اصابع من سحر. تميل الحافات الى الاسفل. بميول بعضها حاد وبعضها مندرج. نحو الاعماق التي تندغم فيها الاشكال. أرى فطرا عملاقا وعظايات زاحفة ومقابر مليئة بالعظام. نافورات متجلدة وفم لحيوان اسطوري ينفث النار. صهير. تجمعت في روحي كل الصفحات التي قرأتها والحكايات التي سمعتها: فرانون ولصوص وسمّار وسائقون وعاهرات. بدو وقطاع طرق وفلاحون. رأيتهم قبلئذ يقضون ايامهم بالكلام. والكلام مثل ذهب عتيق يرسم الطعوم والروائح والالوان. حكمة تلد اخرى.

ثمة ايضا غيوم مبعثرة تدرج في الفاع. نسيها الخريف بعده فأصابها الذعر. مطر لاينبت زرعا وبروق لاتضيء ومراكب اغرقتها العواصف في لجة الموج فغطست الى الاعماق: مر ومرجان ومزاول شمسية.أسفاط معبأة بالجواهر وعقود زينة. خمرة معتقة بجرار

فخارية ومرايا. مزججة بالعاج اطاراتها. جللها الاثن وبيوض السمك. من هنا لابد. من هذه الحفرة العجائبية كانت احلامي الكابوسية وغرائب المنامات تلوث عزلتي.تلك الكوابيس التي افيق منها خائفا مذعورا انشد يدا حانية تمسك اصابعي. منها ربما كنت اجد نفسي طيرا في الفضاء. دائرا فوق المروج العامرة بالزهور. ومنها كنت انط ساقيه فأحس نفسي طيرا له قدرة الاندفاع في الهواء.

من مجلسي. كانت الحافة الامامية لبؤرة احلامي. تبدو مثل جلد قط لتمساح.الجلد متعرج. مفضن. لونه بلون حافات الرحم ذات الحمرة الدموية المذكرة بالولادة.

اتساءل خائفا. هل ثمة رحم كبير في داخلي؟انا المعبأ بالخشونة وادوات الزينة التي كتب على اغلفتها خصيصا للرجال. وبثور الشبق تنزرع في اضلعي. وبي هيام الى الارض الدافئة. المظلمة. المثلثة. المنتظرة لبلل لابأني؟

كل ما اراه يدلني على ذلك. كل ما احسه يبعث الرعب فيّ.

انت ايها السابح في دوامة الاصفر

تتراكب المربعات فوق بعضها. قلقة خائفة. مختلة الثقل. يوحدها الاصفر المعتم. لون غروب الشمس والمزاج المنحرف ورمال البحار المشوية بالحرارة. وهي تشف عن عاصفة منذرة وبركان يطلق مساحيقه في السماء.مربعات كأنها جسد من كتلة كونكريتية او صوانية. في طريقه الى الانهيار.جسد تبنيه المربعات بحذق.

امرأة من مربعات.الأول للحبيب الذي يقبّلها كلما جاءت اليه مساء. تغترف منه حكاياتها واحلامها وعفتها الرقيقة رفة ورق التبغ.والثاني للعشيق الذي تحبه ويراودها الشبق كلما نظرت في وجهه. تستل منه فنونها في العظ والنهش ومهارات الجسد.الثالث للغريب تلتقيه في الشارع والعمل والحدائق العامة. ومنه تمطره بغموضها وغرابتها ولامبالاتها.الرابع للأم. حيث تفتحه على طفولتها وعبثها وبراءتها وذكرياتها البيتية المحروسة بشجرة الدلب في الحوش.مربع خامس وسادس وسابع. الى ان تنتهي الأعداد.

الاصفر نرجسة جافة. والاسود فلنسوة جندي فار من ساحة القتال.

الخطوط البيض مناهة. والفنان عشتار تأكل حبيبها. ومربعات الاصفر العميق تضم مثل رحم وليدها. نوأميها من مستطيلي السواد: انها الحياة وهي تجنح الى المأساة. الحياة وقد توالدت من قيعان الظلمة المسكونة بالافاعي والغيلان والجن والشياطين: شياطين الجسد. نوسوس في العقل الباطن مادة مجسانها واذرعها وخراطيمها لتسرق الروح الى حفلة التهنك والموبقات والليلة الابدية.

فالت احبك وضاجعت غيره.

قال لها سأمضي الى البحر لكن ليس معك.

أنت ايها الانسان الظل. بامن تتحاشى الظهور. إنس انت ام جن؟ تخترق ازقة المدينة في دجنّة الليل. لا يراك احد. تنام خلسة في الحدائق العامة والجوامع والحانات. ترقص مع ظلك امام المرآة. في الحمام او الغرف المغلقة. تدوزن افكارك. مطرق الرأس تحت الاغطية. تهيء خطاك للظهور على مسرح الاحداث. جن أنت أم روح مسربلة بالالم؟فمك ينم عن صرخة. تعابيرك لا يقرأها الا منجّم بالنفوس.كلماتك منقطعة مترددة ولسانك يتعثر بالخوف. ونافورة الدم تدور مثل تاج مقدس. مثل هالة قمرية حول رأسك.

فادوك من صحراء الى صحراء. ومن جبل الى جبل. عشت بأمرهم في مستنقعات البردي بأكلك البعوض والخوف. سكنت الكهوف التي اقمتها بيديك. ثم جاءت آلانهم التي لم ترد لك في خيال ودفنتك هناك.انت وملابسك وبسطالك وخبزك الجاف واحلامك الصغيرة حول الام والحبيبة وقعدة البارلقد تفننوا في تقطيعك ايها الاسمرلقد حولناك الى رسم في لوحة. حيث لن تموت بعد

البوم.

أنت يا الرغبة المكبوتة. باالصرخة المختنقة ولاسبيل لها لمعانقة الهواء.

ياشيطانا راقصا رقصة النوى. والبعد. والغربة.

أنت ايها السابح في دوامة الاصفر.

باالمصنوع من مربعات.

ما الذي ستقوله لنا لو اطلقنا اسارك من اللوحة؟

ماذا ستفول اطرافك المقطعة وجسدك المبعثر في نابوت اللون؟

لو قُدر لنا ان نسلخ الطبقة الملونة ما الذي سنجد تحتها يانرى؟

منمنمات

حدثني واحد من الصحاب قال: رأيت شيئا اشبه بالحلم وماهو بحلم. لم يكن له مثيل. قبلئذ. في حياتي. سجادة هي العجب العجاب. امتدت السجادة شرقا وغربا. شمالا وجنوبا. حافات من جبال جرداء وسهول وهضاب وبيوت فلاحين. لونها رمادي. وشواطئ نهر كسنها اعشاب لم ترد في قاموس.سدائها احرف ولحمتها احرف. كلمات تتكرر الى الابد. طرق صاعدة الى الجبل. اخرى متوغلة بين البساتين. وهواء سلس يدرج على الحروف. وبينها.يبعثرها. ينشرها بين زاوية واخرى. يلمها او يمطها.حروف السجادة تتعامد وتتقاطع. تسيل مثل مياه النهر او تتوغل في متاهة الالوان:ديوك. دعامات. دروب. دمامل. دفلى بلون احمر وابيض. دياجير. دموع صبايا. دنيا. دلال. دبابير تلف من زهرة الى زهرة. دبران. دولة قهوة. دال اسود. ابيض. ازرق. مجوف. ملئ: ناعم. ثخين. ممطوط. لين. صلب. كوفي. نسخي. رقعي. دال يسبح في بحر من البنفسج. خلفته شمس غارية على غيوم شفيفة فوق جبال جرداء.

بدأ الحرف لعبته في الذهن. حينما كان رجل كهل يدخل البيت

المظلل بعريشة عنب. ساقها غليظ. منعرج. يشبه افعى هائلة. تتسلق النوافذ والابواب واشجار التين المزروعة في الحديقة الواسعة.والدال كان رأس الخيط. منه توالد النسيج الملون. ومنه اثث مصنع الحروف الاخرى. التي سيخرج منها ذلك العالم المكتنز بالاشياء والاصوات والروائح والالوان والطعوم.ثم مواويل يطلقها الباعة الجوالون وهم ينادون على بضاعتهم من حارة الى حارة. يركبون عربات تجرها خيول او شاحنات صغيرة لها قدرة التوغل في اضيق الاماكن. مراجيح. مزارات. مآكيل. مواقد تنوهج النار فيها فتكون سماء للعيون تعانق فيها ذكريات قديمة ووجوها ميتة غابت منذ سنين.مربعات. قهوائية وزرقاء وصفراء. مستطيلات مليئة بالكلمات. تتكرر في مساحات ارضية. مناسف. مناشف. مراهم تصطف على ارفف العطارين في الاسواق القديمة والرائحة خليط من المن والموز والمنكا والماورد والمشمش.الميم باسق والميم ميمات تجاور بعضها. ميم طويل وآخر قصير. متدل وملتم خائف ولهان. مآذن تغور في الفضاء مثل اصابع تخاطب الزرقة نهارا بعد نهار. فجرا بعد فجر لانكل. والمزارات تنتأ جبلا او تنتحي تحت شجرة صفصاف نبتت عند ضفة نهر.

يتجمع المشردون على باب الشيخ محي الدين بن عربي يسألون الخبز يوم الجمعة. والنقود ليشتروا ثيابا للشتاء.شتاء. شآبيب مطر. شاي. شالات حريرية وقطنية تتدلى من سقوف السوق. شباب يقفون في زوايا الشوارع يزجون النظر بالحسان يمرقن تسبقهن غيوم العطر. شمام. شام. شعاب هضاب خائفة من سطوة الجبال. شعب شعوب وشينات تتداخل في شينات. مبسوطة تكوّن شبه قوس او مستقيمة تنلقف نقاطها بلهفة.شين ابيض. شين فاقع

الخضرة. شبن تحلل الى فقاعات ورموز سحرية وطلسمات ودوائر ومربعات تتطاير مثل ازهار خريفية فوق حروف السجادة الشاسعة التي اطرافها جبال وسرو. تفاح وزيتون. امواه وسواق.

شابت شعور النساء وهن يدخلن الضوء ويخرجن الى العتمة. شمال المدينة كوخ يقدم الخمرة سرا. للشاربين. نساء وصبايا. رجال اعمال وشعراء. شيب تتناوشهم صبوات النساء.شاغور. شفرات للبناء. شموس في حلم صيف. شعرت الفتاة ان الرجل يلاحقها منذ الصباح فتذكرت انها رأت الوجه في حلم الليلة الماضية فأسلمت له نفسها وعدت الامر قدرا لايمكن الهروب منه.قوس يقود الخطى الى قوس شبيه. قالب. قرية هي ضاحية في الوقت نفسه. قماش من كتان او قطيفة او قطن. قربة ماء معلقة في واجهة محل يبيع التحفيات. فلنسوة للجندي الذي فر من ساحة القتال. بطنه فارغة ورأسه ملأن. قالت الزهرة للنحلة. قبلتك لاسعة.قبور وقباب وقمم يغطيها الثلج في الشتاء والريح في الخريف والشمس في الصيف.

قبة الست رقية مكفتة بالذهب. باطنها زجاج وكرستال ونقوش فارسية. حكم وابيات شعر وآيات قرآنية تلف المتبركين بنفحات من القداسة. قباب الجامع الكبير لها اهلة اقمار قبة تجاور قبة. وعيون جلاس النوفرة تنظر الى السماء.قال المربع الاسود للازرق اتعبتني خطاياك. قال الازرق مالك كالح الطلعة. كلنا نتام في كنف السجادة. مد بصرك وحدق بمربع البياض فالنور ينفذ الى الكهف مثلما يضيء المنبسط.قاف للقبيلة تلملم اطرافها كي تستعيد هيئتها الاولى. مجدها الذي تذكرته بعد غياب. قاف للقلم في عتمة الادراج. قاف للقبيلة الكاذبة التي لاتحس بطعم الشفاه. قاف قامة

في طريقها للثم الارض.

نزلت الكلمة من الاعلى. من عتمة الليل. والنجوم البارزة من اظاليل النبات المعرش. تحدق في كل ذلك عينان صغيرتان فيهما بريق وتوق لمحاكاة ما يتخلق كل لحظة امامهما.نزلت الكلمة وظلت تتكرر منذ القدم. تنقلب. تميل. تعانق الفراغ. تتقطر الى ارض السجادة تسبح تمد اذرعها من زاوية الى اخرى لكنها ثابتة في مكانها لانريم.تحتجب شمس غامضة فتغيب الكلمة. وتتحول السجادة الى مربع واحد اسود. فتسقط الموجودات في العماء. وتلك هي منمنمة الحكمة. التي لاتغيب.

دمشق: جسور لا تمر من تحتها انهار: ديوك تصيح في آخر الليل والنائمون ينطرون فجرها القادم من الشرق على خيول من تين: زوابع تتفجر في الضواحي بغتة. ترسل شآبيب مطرها فتسيل المياه على بيوت القرميد راسمة اشكالا غير مألوفة: عيون صبايا مكحلات لجرة المرود فيها عقفات صاعدة الى الاعلى تموت في طرفي الحاجبين: أوراق صحف تتطاير في الفسحات تشعل النار فيها حين يهطل الليل والصقيع: زينب ورقية وصلاح الدين وابن عربي وخالد بن الوليد والقديس سمعان وتوما وظاهر شاه :عود وايقونه وبزق وصندوق مصدّف وقصر وبحرة وحمام زاجل يتلطى بالرازونات ورجل يدخن الاركيلة في ظل الجامع الاموي ومنورات وسط الحارات المغلقة. نورها يقشر العتمة عن خطى الماشين : مقرنصة من حجر. زهرة لوتس مصفرة البتلات. ترتشف اشعة الشمس. ثم تقطرها على مقرنصات اصغر تحتها. فيمتزج الظل بالضوء. ظلمة هنا ونور هناك. والاقواس الصغيرة اياد تلم هذا الوجود.

مأذن

كان الافق صحراء من رمل وعرفج وجمال. واحة هنا وواحة هناك. ومابينهما افاع تزحف وطرق لاتسلك وذئاب تأكل بعضها جوعا ووحشة.انسان وعطش ومفازة. وحيثما يمتد البصر سماء تلتصق بالارض.وذلك الانسان. حائرا ضعيفا. يقف بينهما. حائرا متأملا. فالشرق غربة والشمال هبوب ريح.بادت معابد وتعاقبت شرائع. وظلت الروح تهيم في ظلام السماء. باحثة عن الأيمان.وفي لحظة نادرة دوى الصوت في البرية. وتلقفته مئذنة من طين كسرت بامتدادها. الهارب من التراب. ذلك الفراغ المروّع.كان الصوت سميرا لبني البشر. ونورا اضاء الكهوف والوديان. البيوت والقرى والمدن.فأذا ذرة الرمل تأتلف مع النداء. والشمس تشرق بحنين على الارض. والماء يترافص على خط الافق. حقيقة هذه المرة. وليس سرابا.ثمة عشبة ترعرعت تحت صخرة في جبل اجرد.لقد ولدت الشرارة من عمق الكون والهبت خيال الانسان.وهاهو يعيش تفاصيل الخلق والابداع.من الجبل جلب المرمر ومن الوادي عجن التراب. وتفجر الخيال من غيهب الذهن.سمق الخيال.اسسا واقواسا. نوافذ وجوائز ومشربيات.اقتطف الزهرة

الحمراء ليصنع لون القرمز. واستخرج من جوف الحوت سوادا. ومن الغزال مسكا.جذوع النخيل اصبحت ركائز ليؤثث. بكل ذلك. بيتا يجعل منه معراجا الى السماء. يتضوع بالشذى المسكي. فكانت المئذنة سلما.معراجا يشيد علاقة خاصة بين عالمين.

سلم يقوده خمس مرات. يوميا. الى السماء. بنجومها ومجراتها وافلاكها الدائرة منذ الازل في عماء غير معلوم. هاهو يرتفع عن اديم الارض بضعة اذرع. يجد روحه خفيفة وهي تتخلص من أسار الضغينة والكره والجوع والتخمة.تسامح يفرش السكينة اينما حل.فأذا الصوت يخرج من الاعماق. يبارك النيتة الزاهية بخضرتها. والطفل الذي يدرج في احضان الام. والجدران المشادة لكي تستمر الحياة.الصوت نبراس الذرّة الحية. وعصارة الفكرة وعنفوان الخشوع. حين يقف ذلك الكائن الضعيف امام جبروت النور. الواحد. المهيمن دون ان تحده جهة او تشير له رياح.اصبع ملون من الحجر. دائري ومربع. مثمن ومخمس. ازرق او ابيض. رمادي او مائل الى الحمرة. ينهض من باحة المسجد يستدق كلما صعد الى الاعلى. جسد صلد. تتخلله الرازونات المقوسة والزخارف بمربعاتها ودوائرها وشبابيكها. ورق نبات يشتبك بعضه بالبعض. والفراغات تحتضن الحمام وانفاس المصلين.نظر الشاب الى الشموع الخضر. اعلى المئذنة. وكان الليل قد رقَّ فأحس بأنه عاشق.وحدقت الصبية بالنور ذاته. فغزتها السنة نار خفيفة. تحت الثدي.

التوريق في الفضة والتكفيت في الخشب.مبناء.عظم.عاج.جلد. حفر وتنقير وتكفيت. تزجيج وتمويه وتنزيل. تخريم وترصيع وتطعيم وتشبيك. وتلك مبتكراته مثل النعي والمواجد والتواشيح

والابنهالات.ثم في نقطة ما يدور المربع دورة خفيفة ليرسم مثمنا ادق من القاعدة. لا يلبث ان يسقف بالخشب وبزجج بالآجروالفسيفساء. ابيض واسود. يكون قاعدة لنهاية البرج. حيث يقف الهلال يسعى بقوسه المفتوح كي يلتم الزرقة ويحتوي الافق.تواريخ تترسب على اشباهها. وأيام تلاحق دورتها. نقوش على نقوش والتالي يذكر السابق. عبر القصص والنوادر والانساب. ويلبث ظل المئذنة فيئا ومحط نظر وتأمل.

وفي مكان ما تخفي المئذنة الفوانيس والزجاجيات والمصدفات والمرايا. نور على نور والمعدنيات البراقة ثم الرخام المجزع الذي يسطع الابيض فيه.ثم الابلق الجامع للسيراميك مع المجزع والارض صدفة بحر يكمن فيها سر هذي الحياة.مشكاة مثبتة على جدار مورق. يتماوج عليه ضوء الزجاج المعشق العابر في صباح مشرق نوافذ القبة.والارض مقرنصات تحجب النور والظلمة.في كل عتمة بقعة نور وسجادة الضوء المفروشة على الارضية تتخللها الظلال.

هنا جلس الساهرون يزجون الوقت. منتظرين طلوع الضوء. وهنا راقب شيخ ذات اصيل. غروب الشمس خلف الجبل.اختلفت التسميات والبشر واحد:اموبون وعباسيون. سلاجقة وبويهيون. معول وفرس. عرب وعجم. كلهم ترقبوا سحر ذلك الصوت الساقط في الأذان من الاعلى.تحولوا في برهة خاطفة الى تعريشة في زخرف على جدار. دائرة تلد مثلثات ودوائر اصغر. غصن مجبول من الفسيفساء ليس له بدء ولا منتهى. ثم ريحوا خلودهم

في البدء كانت الكلمة. إقرأ. ظلت تجوب المدن والدروب وجاء عليهاحين. انطلقت من برج. ثم نادت البشر ليجتمعوا حولها. ولم

يلبث البشر ان أشادوا المدن.صارت الشوارع تقود العبّاد الى الجامع. واندفع الصنّاع ينشئون دكاكينهم وخاناتهم ومقاهيهم.مصالحهم وحماماتهم.حشود تأتي وحشود تمضي وظل ذلك البيت لابثا على مر العصور.منه تنطلق المواعظ والقصص والحكايات والاحاديث والاخبار. ومنه تخرج الكتب بفنونها لتضيء الاذهان بثمار المعرفة المشعة.

مئذنة اندلسية ارتشفت ذات يوم غروب اسبانيا المرقش بالغيوم. مئذنة هندية لاتزال رقوشها تحتفظ بشذى البهار والافحوان والفل. وثالثة بين جبلين. صارت محطة للتائهين والمسافرين والمشردين الذين ضلت بهم السبل.تحتها فنديل يجلي عتمة الليل. مئذنة شامية توارثتها الحضارات. تشرف على بردى وجبال القلمون وبراري الجزيرة. كانت مرة ذراعا. يمتد من اعماق افريقيا وحتى جبال البلقان.وأخرى توزع قداستها بكلمات وحروف على الكثبان الرملية والعواصف وخيام البدو. لكن كلها تستند الى ارضية مكسوة بالبلاط. وتتوحد في ذات النداء.وتشبع رقوشها وتخاريمها ونباتاتها المرسومة وأهلّتها جوا من القداسة والخشوع. لايلبث المارق في ظلالها من التطلع بدهشة.

تمر الغيوم وتنث مطرها فيسيل الماء على الاشكال. يخلق الحياة فيها. تهتز الورقة وتتماوج الدائرة. وتسبح ترانيم العشق على الزهرة المطرّقة والعسلوج الملتف حول رقبة التم وعين الحورية التي لها جسد سمكة.ينظر الطير الرابض تحت مظلة الخشب بعينين مستغربتين. ثم ينطلق الأذان. يسيل على اسطح البيوت وتتوزعه الأمداء شرقا وغربا. شمالا وجنوبا. وأذا ذلك الطير المرتكن

الى الرازونة بطمأنينة. يجبهه الصوت فيطلق جناحيه للريح. ويحلق عاليا في السماء.

كان الفجر يصبغ الافق باللون الاحمر. كتلة الشجر خلّصت للتو اقدامها من لزوجة الظلام وراحت تفاصيلها تتكشف قليلا قليلا. الغصن والساق والورقة.صاح ديك من بعيد وابقط شلة الكلاب الرابضة قرب مخازن التبن والحطب.بكى ولبد وماءت قطة. ثم تناهى الى الاسماع صوت خطى في شارع ما من شوارع المدينة.لقد دبت الحياة والشمس عما قليل ستسفر عن وجهها بعد سكون مطلق. وطويل. قالت المئذنة المدورة لرفيقتها المربعة: لم انت هكذا؟جاوبتها الأخرى قائلة: اشكالنا تختلف. لكن ارواحنا واحدة.نحن أمواه تسيل من النبع نفسه. فلمَ التبجح.العبوم معاطفنا والسماء الأسرّة.

مابين الأرض والسماء. مئذنة وإنسان وضوء.

الرايات الذهبية

شلال يتحدر من سفح جبل. زخّت امواهه غيوم شاردة فوق قمم سرعان مانختفي مخلفة وراءها شدرات شاسعة من الازرق.سواحل بعيدة الغور لايصل نهايانها البصر او البصيرة. شلال كلي علي بك. شلال احمد أوه. شلال قنديل. شلالات الروح اذ تسبح شريدة في الوديان والكهوف. والشلال الذي من ضياء ينم عن بشر او بعض بشر.الى اليسار حافة حادة تؤطر وجها او تبندئ سفحا. وبقع محروقة كأنها شعر امرأة غافية او قنبلة. والى اليمين كهوف غامضة رسم على جدرانها البشر يوما طيورا لاحلامهم. غزلانا لاوهامهم. كراكي لخيالاتهم. وعليها شاهدوا ظلالهم تتراقص مثل شياطين منفلتة من قمقم.اشجار من العفص والاسبندار. جذور عتيقة مرت على السنين دون اسف. لقد شهدت المعارك والهجرات والخيانات.

العنب احمر في السفح. والجوز اخضر خضرة عميقة في الوادي.الدخان الخارج من مداخن البيوت ازرق ينثال الى السماء معطرا بالاعشاب ورائحة الشاي والهيل.وعلى القمة والمنحدر. عين الماء والارض المحروقة. البغل والمقاتل. البيت والكهف. يهيمن حلم

عميق مزخرف بعناية على الرايات الذهبية التي لم بنقطع مرورها.

جذور شهدت كثبان ثلج تنيخ عليها او بساتين نرجس تنفرش فوقها.

شلال وشجرة جوز وفم كهف وحافات جبلية والوان كأنها دماء وسهول وهضاب وقبضة من الخيال والحلم. تؤلف ذلك الوجه الكلي. عشتار الجبل ذات العينين الضابحتين حزنا.

مرآة الوقت التي ترينا الماضي وتعبر بنا الحاضر. العصي على الفهم. علنا نستشف ما سوف يأتي. او نرى عربات المصير وهي تغذ الخطى نحونا.في المسير بين جبلين. عشرات العيون تدفع عن مائها اعصان الزعرور البري والاشنات وعروق الجوز لكي تسفر عن البرودة التي تروي عطش المسافرين وحملة البنادق والمهربين وبغالهم.بين قرية وقرية مزارع محروقة وسموم هطلت من السماء ودروب كانت تقود الجميع: المنتصرين والمهزومين. الهاربين والعائدين. النساء والرجال.

كانت رايات ذهبية شقراء مجيدة

ترفرف. تنقلب وتتماوج على السفح

ذلك. كل ذلك. في زمن بعيد بعيد.

تلك صورة لن تمحى. فهي منقوشة في ملايين الاذهان. لايزيدها الزمن الا سطوعا وحضورا.

حلم قرية

ثبت المشهد في عينيه. ظل معه في الذهن. ذائبا في مادة الدماغ الحية. طوف في مدن أخرى. وبلدان. فطن معه في فنادق وتشرد مثله على الارصفة. بقي ساكنا فيه بأدق التفاصيل. وكأن السنين لاتزيده الا وضوحا ورسوخا في روحه.فكر ان لديه رغبة سرية تتشبث بتفاصيله مثل هذا التشبث. يحدسها دون ان يصل الى كنهها.فكر ان السبب رحيله عن القرية بذلك الوقت من النهار. حين تبدأ الاشكال ابراز كامل ثقلها تحت اشعة الشمس. الا انه. ولحد هذه اللحظة لم يعد يتذكر الوقت بالضبط.هل كان صباحا ام ظهيرة. عصرا ام مساء. اذ كان ثمة اختلاط في الالوان. بعضها مضيء وبعضها معتم. ومن هنا. ربما. جاء ذلك الالتباس.

في مقدمة المشهد وجهان غامضان. لفتاتين. هل كانا ثلاثة وجوه؟وربما وجه فتاة وطفلة بملابس ثقيلة. ارجوانية. تغطيان رأسيهما بغطائين ارجوانيين ايضا.وجهان يبدو عليهما الحزن. مع حمرة خفيفة على الخدود. تعكس براءة تنسجم مع الخلفية.العيون تنظر نظرة وداع الى شخص عزيز. كان هو نفسه بلا شك. تتبع

جسده مندفعا في الطريق الى مصيره الذي لم يعرفه آنذاك. يد بأصابع نحيفة تمتد الى الوجه. تكفكف دمعة سالت من الرموش، ولاتبين في طلاوة الظلال المفروشة على الوجه. وكأن تلك المرأة تدبر ظهرها للشمس. كان اللون الارجواني ينسحب من خلف الفتانين لينصهر بالارض، ويزاوج ظلال النباتات ملقيا عليها اهابا اكثر دكنة. فتندغم هوية الذرات الترابية بإبر الشوك. ولا تتبدى ملامح واضحة لبقايا القمح والعرعر، الحنظل والنوم البري، وحين تنعكس اشعة الشمس على عيدان بيض يفقع ضوء لماع فيشتت تماسك اللون الارجواني ويخلخل صلادته. تتهيأ العيون لتقبل الاخضر المنتشر على بقعة هائلة من تخوم القرية.

انه الزيتون بأغصانه المورقة التي داعبت وجهه. لعب بين سيقانه واصطاد طيوره. وأكل من ثماره. يتناثر على الارض مرفشا اياها بالحياة.

نيجان خضر صانته. تسبح في هدوء وسكينة الحقول الخالية من البشر. تحت رهافة الظل قطف اول قبلة من بنت عمه. نصب الارجوحة الاولى التي هدهدها فيها. ورغم انه لم ير مثل تلك التفاصيل الا انها تأتيه كلما طالعته اشجار الزيتون. مبعثرة خلف الفتاتين بامتداد السهل الواسع حتى البيوت.لم يعد يتذكر ان كان ثمة اشخاص يعملون في الحقل. فتلك الصورة لاتبرز سوى فتاتين. كما لا توجد طيور في السماء او الارض. رغم ان قريته لاتخلو من الهداهد والعصافير وعرائس الزيتون بريشها الملون واصواتها المزعجة. في الظهيرة خاصة. لكنه لم يعد متأكدا ان الوقت كان وقت ظهيرة ام لا.

وحين تميل ارض الزيتون الى الانحدار يخف اللون ويصبح مائلا الى الحمرة.يمكن تمييز حافة المنحدر من اختلاف اللونين. كما يمكن تمييز بعض الحفر والكهوف الصغيرة من بعيد بسبب لونها الاسود. وكأن الشمس لم تعرج الى هناك.ومنلما ازدادت كثافة الالوان. واكتظاظ الحقول بالظلال. فأن المنبسط الفاصل بين الحقل والبيوت بدا اقل دكنة.صار اللون احمر خفيفا. احاط بالبيوت المشعة. بواجهاتها البيض. التي حولتها المسافات الى اطياف. اطياف بيوت مهجورة. منكفئة على نفسها. موحشة. مقفرة. عدا حركة الضوء والظل فلا حركة في الافق. ابتلعت الاضواء والالوان في المشهد كل حي وظلت هي الحية لاغير.

لعبة كثيرا ما مارستها معه ايام الطفولة. اذ يفتح عينيه فيحس روحه في صحراء. وقد غابت القرية عن الارض وتركت خلفها خلاء من الضياء والظلال والانوار المنعكسة والبقع السود والخطوط الممتدة على الارض. تكون جبلا حينا ومنحدرا حينا آخر.على ان عمود البياض في ذلك المشهد هو الابرز. وهو يعرف ان الارض ما ان تبدأ بالارتفاع خلف البيوت حتى تأخذ شكل جبل خفيض. تسلقه في المساءات او الاصائل. بلهو لايكل في الركض. واكتشاف التضاريس المحيطة به. بجسده المتفتح على لذاذات الاشياء البكر. التي لاتحمل مسميات بعد.

أنه الجبل اذن. يشهق بحوافه الشفيفة. والشمس تعريه من مادته الصلدة. الكثيفة. وتحوله الى كتلة بياض.شمس ثانية تسبح في الارض بدلا من السماء..عمود ملح.. سكر. ربما. تحف به صفرة تقيم حاجزا بينه وبين دكنة التراب.....

كان في كثير من الاحيان. وفي مختلف الامكنة. يعتصر ذاكرته لترشده الى تفاصيل غير تلك. فلم يوفق.تعجب من ان ذلك المشهد لم تكن فيه سماء. حتى زرقتها بعيدة عن الارض. كما ان الشمس. الحاضرة في الموجودات عبر التماعاتها والظلال التي تكونها والتدرجات اللونية. غائبة هي الاخرى. هل كانت عيناه مركزتين في الارض. تحت خط الافق فقط. حين غادر القرية؟اقتنع تماما انه الاحتمال الارجح.

بورتريه

رقبته ضخمة كجذع نخلة. مشققة دائما.الشقوق ترسم وجوها متقابلة لنساء ورجال ابتلعهم بفمه الغامض اثناء وجباته اليومية التي يتناولها عادة في قصوره المزروعة في ارض الوطن.خيوط ضوئية تترشح الى الاسفل لتكون نيشانا مدلى على صدره العريض. ينتهي بأهداب مثلثة يمكن ان توحي الرقبة ايضا برأس نسر هائل متوحش كان يفتات على جثث الضحايا.تستطيل الرقبة وتدق. ليبدأ الرأس الغامض. المرعب. القناع والحقيقة. الاطار والصورة. مستودع الاوهام التي خلقها لنفسه منذ الولادة.في الفوس المقلوب. ذلك القوس المضيء تبدأ تحولات الرأس واسراره الغامضة.الهواء انفاس معذبين. الضوضاء قعقعة اسلحة قادمة لاصطياده. والشفق كلمة سرّ لازاحته عن العرش.

انف على هيئة مقص. حاجبان عينان. عينان حادتان ثابتتان تنفذان الى داخل الناس. البؤبؤ والقزحية والبياض كتلة واحدة. تشكل مصدر رعب للحاشية. اذ انه يستل ابسط الظنون والريبات من اعماقهم ثم يرسلهم الى دهاليزه وانفاقه ليلاقوا

مصيرهم.يتحولون الى اطعمة لوجباته السريعة.الرؤوس للفطور والافخاذ للعشاء والظهور مابين الوجبتين. ربما لهذا السبب تلطخ وجهه بالسواد وغارت تجاعيده وكثرت. لايبقى في حضرته سوى دماء الرعب. تجلل الحشايا والتكايا والصور المعلقة المرسومة بأوامره الخفية.وهو يعصب رأسه بعصابة حريرية لونها داكن ويزيّن اذنيه بقرطين مدورين فيهما تخاريم ودوّيرات تنساب منها خيوط من نحاس او صوف اصفرانها تشبه ضفيرة اطفال لكنها ليست بضفيرة. لقد توارث طرزها الحكام جيلا فجيلا وقد رآها الجنرال في واحدة من جولاته الاثرية في رسمة لحمورابي او جلجامش. توت عنخ آمون او الزباء فأصدر مرسومه بأن تكون ضمن زيه الرسمي الذي سيظهر فيه ايام الاحتفالات ولحظات التقاط الصور.

شعبي رعيتي التي اضرب بها من شئت. انهاري سلاحي اجهزها للضماً.ابنيتي سجون لعشاق الفضاءات. والجبال ملكي بذهبها وفضتها.الغابات زينة ناظري بكل ماتضم من جلنار وسيسبان وآس وعرائش نرجس وورود. والنساء جوار تضرب لي الدفوف والزمر وتسدل الستر على سرير متعتي.امنح الحياة بكف وأسلبها بالاخرى. يقول الجنرال للحاشية.

نحن عيون لجبروتك. كلمات تفشي اسرار مناوئيك. بنادق مخبأة تحت الجسور وفي الدهاليز وتحت مخازن الحطب وفي شقوق الجبال. تنير الحكم حين يعم الليل. تخاطبه الحاشية. ورؤوسها تلامس بلاط بهوه.

يقف الجنرال دائما وقفة واثقة. عيناه ثابتتان. يداه لاتميلان. رأسه لاينحني.جسده منغرز في الارض كعمود من اعمدة الآلهة

وخلفه لايبرز سوى مسطّح معتم يميل لونه الى السواد. لتضليل العدو اذ يمكن ان يكون. وفي اللحظة نفسها. بأي بقعة من بقاع الوطن.

كتفاه عاليان كقباب الاضرحة. يطليهما. مثل القباب ايضا. بماء الذهب ويرتشهما بالقاشاني. ويزججهما بالنجوم. هكذا هم الجنرالات دائما. شباب دائم وسلطة باقية. ونفور من العلن. وارتشاف الخفايا خلف جدران ثقيلة. مطبقة بالحديد. محروسة بالحاشية. صحف تأتي وصحف تموت. وصورته في الواجهة.وليس من السهولة قراءة خرائط الكتفين. كتفيه الرجوليتين. لانها تروي المعارك الوهمية التي خاضها. مرة على ظهر فرس ومرة في برج دبابة. واحيانا يعنّ له الخيال وبهمزه التبجح فيمتطي صاروخا كما لو كان جملا من جمال قبيلته.

ليس من الغريب اذن ان تشكل قباب الكتفين مع اليدين الطويلتين منظر قذيفتين حديثتين جاهزتين للاطلاق.اكمام الجنرال مزخرفة تجذب البصر. مثل سجادة فارسية: مثلثات ومربعات ونقاط بيض وغزلان نافرة ومسطحات تشبه حقولا جاهزة للزرع. سيطلق حماماته لتحلق فوق جسده المتين. ويزنّر الكرة الارضية بوهج من جبروته. ليله نهار ونهاره ليل. وأزمانه لاتقاس بالساعات. بل بعدد المعارك التي خاضها. في رأسه.

لكن. شئ واحد لايستطيع الجنرال اخفاءه عن العيون. اصابعه الشبيهة باصابع المومياءات. عجفاء طويلة بيضاء لها نكهة الموت.يظنها الرائي سنتساقط سلامية سلامية ما ان يهم بتحريكها.عصا الجنرال منكسرة دائما. من الغضب ربما او من قلق

سلطنته التي يتوقع زوالها كلما بزغت عليه الشمس. او كلما سمع هديل حمامة في بساتينه الغناء. وغالبا مايكون بسبب النسيم الطلق. الذي لايخضع لهيبته.

الجنرال الواقف امامكم. الابهة الباذخة. بلورة الجبروت. يحتاج الى دفعة خفيفة. فقط. ليتناثر حطاما على الارض. ارض الذرة الصفراء والقمح والبرسيم والانهار المنحدرة من جبال الثلوج والاسبندار. ارض البيوت الشعر والعمارات الشاهقة وحدائق النور وبوابات السواقي المصنوعة من جذوع وامراس وطين.رماد حطامه ستمتصه التربة السوداء والحمراء. الرمال والسبخ.سيشمره الهواء حتى آخر هاوية من حقول القصب..لكن متى. وكيف؟

حصان طروادة

حصان طروادة الذي فتن المغني هوميروس. كم اطلق خرابه على المدن مثل كلاب ضالة. وهاهو الآن يستعبد زهوه على القماش.

حصان له قرنان مرعبان. هلالان سيفان. والخطوط السود تؤطر جمجمة هائلة. ضخمة في الاعلى. مستدقة في الاسفل. كتلة جمحت في الفضاءات ذات يوم بشراع من شعر وخفة سنونو باحث عن مرفأ.ينحدر الخط بسلاسة. وفي الاعلى يرسم ظلا لعين وخطما طويلا وفما. يسيل منه خيط يهوي الى الاسفل نحو زهور حقول ملونة.زهور صفر وخضر. ثويجات وبتلات. وأشواك لاتراها العين. الا اذا دققت امامها وشحذت شفرة الخيال.حصان طروادة بلا عينين. يقف وقفة جامدة امام بني البشر. يكتم سره ولا يبوح.من لايملك عينين لايبوح بسره. لايطل على السر سوى الحقول والربوات والفارس المشغول بلجام حصانه.جسد هائل يقف على اربعة قوائم ضخمة كأنها اعمدة قصر شامخ من قصور رومانية.وعلى الظهر استراح السرج. خديعة للعيون كي لاتنفذ الى الداخل. الى حيث الرجال المختبئين في البطن الشاسعة.كيف تقرأ فكرة ناعمة خلف الازرق

المخضر المرقش بالاحمر والبنفسجي وهي التي ولدت من فوضى الذهن؟هل نقرأ المسخ الذي امامنا ام نقرأ انفسنا؟كيف نكتب الصمت بحروف لها معنى وكلمات. لها طعم كطعم التوت البري؟دواخلنا المشيدة من بقع وخطوط وكوابيس واحلام وخيالات شاذة ولدتها حياة كاملة.

الذيل سيل دخان فاض من تنور. او جني خرج للتو من قمقمه. واللون الازرق المخضر يلوح لنا بذبذباته متباهيا بخفقه على السواد.حصان اعجوبة. هكذا يقول الرجل الواقف تحت البطن. انه يسمع النبض. الهمسات السرية في الجوف. يفغر فمه رعبا. يتحول الى مسخ بأرجل ثورية واستطالات سمكية فيتحرك حركات دودية بين قوائم مهيأة للركض والقفز للجري في سهوب غابت عنها المعارك.

هل يتأهب الحصان للطيران؟كيف استله الفنان من جدث اسطورته ليضيئه بألوانه كي يكون حاضرا بيننا؟حصان الاسرار الذي تقف امامه البشرية حائرة. فالسر عميق والزرقة مبهطة والليل ليل طروادة اطول من جرح.

ثم فجأة تنطلق القهقهة خارج الاطار. طويلة ساخرة.

ذلك الذي نرى لم يكن حصانا.طروادة بعيدة. غافية تحت ركام التاريخ او مسترخية بين طيات الورق. وصوت هومبروس غاب في ضجيج الموسيقى.حجبته الاعمدة الساقطة والمرايا المكسورة في غرف القصور وآثار الحرائق على الجدران وقد غطتها انسجة العنكبوت وشهوة التحلل الكامنة في المادة.

انه ثور مجنح. على الاغلب. كان حارسا لمعبد عشتار. او إلاها

للقمح والذرة.ربما راع مسخته الآلهة لانه لم يهد اصحابه الى السماء.ثور مجنح نسينه عربات بابل المظهمة وهي تخترق سهول الرافدين ايام كانت الشمس تأكل نفسها في غروب المدن. وخلف الاطار تخيل وسواق وبيوت طينية ودروب مظللة بالبوكالبتوس. اطفال عراة وفمامات ازقة وطوابير من الذباب وبقر يرعى في حقول معشبة. ينظر الينا بطمأنينة.

قطرة

كان في حالة وجد حين راح يهذي عن تلك القطرة. التي دعاها. فطرتي.فال ولدت القطرة من الظلام. مرت نجمة. غابت شهابا. تحدرت من عمق لا قرار له. ولا تزال في انحدارها منذ ملايين السنين.قطرة من حروف.الجوف صهبر ذهب تتسع مساحته كلما انحدر الى الاسفل.شعر صبية لبست من شمسها غلالة. وحقل من القمح تطير حوله رفوف من الحروف. زرقاء اجنحة ومناقير وأرجل. في القطرة التي استعارت لونها من لون البحر. قناديل بحر واخطبوطات ونجم بحري. مرجان ورقاصات مجهرية واسماك غامضة الشكل.فخار مفتت واشنات تجد نفسها في اجواف حيتان ليلا. حيث تبدأ رحلتها في الجسد العملاق. متخذة وجودا آخر.ماحول القطرة ظلمة وفي داخل القطرة وهج. يذكّر بالمجرة.بداية التكوين. حين لم يكن للاحياء اثر على الكواكب.قطرة مداد. ماء. حامض. نار. شرارة تلهب الصدور بأشواقها كي تتسامى الى الاعلى. دمعة فوق الجبال والعمارات وذرى الاشجار ورؤوس البشر. قطرة من عرفان وحكمة.ميم مسيل.سينات وميمات وحاءات وطاءات وباءات ونونات. تنبسط وتضيق. ترقص وتنام.

كهوي أو تحلق. ذرات من الاوكسجين الذي يتنفسه البشر كل يوم. وأخرى من الهايدروجين.

عشق الاواصر منذ البدء.

سين سيل عارم يجرف معه العيدان والقش والاحياء الصغيرة.راء رطوبة تختزن المياه. تتغلغل في البيوت المطلة على الموانئ والانهار والمستنقعات.دموع تتساقط. دجاج ماء في مستنقع.عين عرق خضّب صدر الرجل الكث بعد ليلة قضاها في مخدع وثير مع امرأة عارمة الانوثة.كان ثمة كأس ماء موضوع على طاولة الزينة جنب الفراش.الهدأة تمسح بريشها على واجهات البيوت.قطرة دمعة. تهمي ملايين كل يوم غير انها لاتتشابه. واحدة للحزن واخرى للغضب. واحدة للألم وثانية للفرح. دمعة تشتغل لاطلاقها ملايين من الخلايا والاعصاب والحواس التي يمتلكها البشر.بياض. خضرة. زرقة. صفرة. الوان الطيف وقوس قزح. منظورا اليها عبر موشور كرستالي.ظلال الزرقة زرقة اخف. تتدرج نحو البياض لتصبح ساحل رمل تتأجج عليه نار لاترى. قالت البنت وهي ساهمة دفنت جسدي في الرمل حتى العنق ثم اغمضت عيني فاحسست كما لو انني غائبة عن هذا الوجود.ثم تنخذ القطرة شكل شلال صغير ينزل الماء منه بقوة. بانبساط بلامس عشرة امامه فترتفع السنته مزرقّة الشآبيب. وترتد الى الوراء قبل ان تندفع في السافية. بعيدا نحو حقول الطماطم والباذنجان والقرع والبطيخ.يسقط الضوء على تلك الكتلة الباردة. يتغلغل في ذراتها مثل يد حانية.يفجر الفراغات بالانوار. نور يعكس نورا. وشعاع يلتهم شعاعا. فتصبح القطرة مجرة. من ضوء.تتولد منها نجوم وكواكب واقمار. تدور بعضها حول البعض.

تتجاذب. تنصهر. تتنافر. تتفجر. تتبخر. تتحلل من هذه الفوضى. ومع ايقاع السنين. وهي تعبر آلافا بعد آلاف. تتبلور الاقمار فترتدي لون الزهر. تتكون الشموس فأذا بها ذهب. تتصلد الكواكب ترابا ونارا. حديدا وماء. لاتلبث ان تمسها الحروف. والكلمات.ثم. فجأة. تنبعث الحياة. ازهارا وحملانا وبشرا ودبابات غريبة الهيئة.تصبح الارض قطرة من تراب.

يسروع كان يدب على غصن زيتون. يحانل في دبيبه جذور الورق وغصينات لما تزل في اول تفتحها. تقود حركته رائحة الماء. في اعلى الغصن. حيث تلبثت بقايا ضئيلة من ندى الصباح لم تنزلق عن سطح الورقة عطش الكائن الى الحياة سراب يحسبه ماء.قطرة ماحولها ظلمة وفي القلب صهير من ذهب.لقد ولدت القطرة من صوت. كان يجيء برخاوة الى أذن قلقة. تتسمع دبيب النمل وهفهفة الاوراق في الحديقة. ومسير الريح على العشب. والصوت القادم من المطبخ. من حنفية الدار التي لم تغلق جيدا. صوت ثخين الوقع. رتيب. يوقظ الحواس.عبرت نجمة. في المساء. وغابت شهابا. في الليل.ثم تجلت القطرة الوانا على الورق. بهية مشعة قلقة.

العاصي

فتح عينيه على المدى. فكان النهر امامه. مثل حلم رهيف. لايود له ان يختفي من الذاكرة. جمع في مائه وحشائشه ومياهه الزرقاء والاشجار التي تحف به كل انهار العالم التي احبها.الانهار التي غاص في رملها اللدن وداعبت اسماكها الصغيرة اصابع قدميه.رأى الدوامات النهرية وسط المسيل. والاسماك عند الجرف. والانعكاسات تنثال من بؤرة في الماء.

كان في مقام الماء حين ابصر.

على امتداد الضفة حشائش المياه. طويلة خضراء ذات رائحة نفاذة.رائحة الحياة الاولى المنبثقة من الطين الآسن ورطوبة المياه. تحتها تتخفى الديدان النهرية مسترخية في الظلال.ديدان ستكون يوما طعاما لطيور الماء او الاسماك اللاطية على الشاطئ.انعكاسات الاشعة تسري من موجة الى موجة. تزور عينيه وتعشي الرؤية. وسرعان ما تنقله الى سماوات الرؤى النفاذة. فأذا به يحلق فوق الارض الغنية بالاغصان. فوق تموجات الارض والطرق المسافرة من مكان الى مكان.من هنا مرت كراديس الرومان متجهة

الى صحـراء البدو. غـسلوا وجوههم في تلـك الفسحـة. تحت أسنة الحراب.دروع لاصفة ووجوه معفرة بالغبرة. حينهاكانت المياه ترف بين الجرف والجرف.كـانت شمس القة ونهارات سـعيدة ونحل يطوف من حقل لآخر.

احس جسده خـفيقا. هو طائرآخر بطلق جناحيـه لريح رخيه. في عمق المـشهـد هذا التحليق الحـر لم يره او يحسـه الا في الاحلام. ولحظات الصفو. المسروقة من بيادر الالم.

منذ آلاف السنين كانت النسوة ينهضن من اسـرتهن متراخيات. يجمعن الملابس الوسخة. ويضـعنها في سلال مجدولة من القصب او القنب او السـبسبان.ينحدرن في الطرق الضـيقـة نحو الضـفاف. يبـدأن طقسـهن اليـومي.منذ آلاف السنين والأيدي الانثـوية تداعب امواه النهر. تخضها. تكتـسح رخاوتها ونشتت صفاءها. يكون العناق اللذيذ. بين النسـيج والرطوبة. تنحل قطـرات العرق والغـبار. الأسـرار الصغيرة تنبجس. وآهات الغيـرة والاحزان تترى ناخرة. في مجرى النهر. أموات يهجـرون النهر واحياء يستـحمون فيه.أموات يمـضون واطفال يولدون.قالت قروية لصاحـبتها مالنا ولهذي الحـياة النكد.ردت الثانية قائلة لانملك غـيرها. فيـما تصاعـدت من الضفاف ابخـرة ذات رائحة عطنة.رايات تجيء ورايات تمضي. ينمو زهر الضفاف ويغرد الطير.

رايات المـسلمين طالعت فـلاحي القرى بغـتة. كـانت خيـولهم ترتشف المياه بلهفة سـفر طويل.ابوازها تتموج على السطح البراق. وهي تنقل الرسـالة الجديدة مـن حقل الى غـوطة.من رأس الى قلب. ولاة وشرطة ولصـوص ومسافـرون استظلوا بأفياء شـجر ينمو رخـيا على الضفاف.

إمـرأة وافـفـة تطوي يديهـا الى صـدرها. مـتـأملة. بالـغـرين والاشن.بمجـرى حيـاتها ايضـا. ترتدي كـنرة صفراء علـى تنورة سوداء. تنظر الى حصى النهر دهشة عاشقة.اخرى تضرب القماش بالصخور. تسرح افكـارها الى اعباء البـيت والزوج والابناء.ثالثة تـحدق في الافق باحثة عن خـيال رجل ينحدر بين اشجـار الزيتون نحو النهر.الصـفـدعة تنق في الطين واليعـسوب يطير فوق الرابية.الوزغـة في الحرش تمد لسـانها لتـصطاد ذبابة الحقل وعـصفـور الدوري ينظر الى الحـشرة الدابة في التـراب.وعلى مـقربة تناثرت صخـون واسعـة ومـساحـيق صابون.رغوات طيارة. كانت ترش الفضاء بفقاعات ملونة.البيوت كانت تختفي خلـف الغيطان. لايراها احد. يحسـهـا قريبة. نتيـجة الاصوات الاليـفة المـنطلقة فـي الفضـاء: اصـوات ديكة. ثغـاء اغنام. ضجـة اطفال. نداءات رجال صادرة من الحقول...الحـياة بكل عنفوانها تعانق النهر. نطـوقه. تندغم فيـه.يتزاوجـان فلا انفصـام بينهمـا. يأتي جيل ويمضي جـيل والعناق المبدع دائما مـتجدد ولهان. يحـمل في طياته عنصر الموت والحياة.

تتبدل الالوان في اوراق العشب. وذؤابات الشجر. وذرات التراب. بين الفجـر والضحى قـوس فرح. وبين الظهـيرة والمـساء أطيـاف. رمادي فأبيض فشاحب فأصفر. لبحل الليل ناسجا شـبكة هائلة من السواد. يلقيـها على امواج النهر وحـصاه واشجاره ودروبه.والدروب خـالية من السابلة.هدأت الحيـاة من حوله. لكنه لايهدأ.بين الضلوع رؤى وأوهام وخيـالات. و أمامـه لايرى سوى الاضـواء المتـغامـزة الخافـتة. كأنـها قادمة من مجرة بعيدة. اضواء الحباحب. تنتقل من ظلمة الى ظلمة. من غصن لايـرى الى أخر. يتغطى النـهر بسبل من الاشـعة. ناعـمة.

تضيء وتنطفئ، تكثف وتتشتت.

يخال نفسه وقد صار واحدة منها، انه ينتمي الى جيوش النور المتحدرة من عالم التأملات والرؤى والاحلام لاتلبث الحياة الواقعية، وبعد ان استحال حبحبة مضيئة، ان تختفي، الماء والشجرة، الجندي الروماني والنساء، عصفور الدوري وفرس النهردخان التنانير وصمت هذا الليل، كل ذلك يختفي، يذوب في غمرة المياه.

يأتون. تسبقهم صولجاناتهم

يأتون. تسبقهم صولجاناتهم وأهلتهم. قبضاتهم المتأهبة لغرس سيف ماض في الجسد. الوانهم زرق. لايذكرنا هلالهم بالمئذنة ولا صولجانهم بعصا الراعي.يأتون بجزمات ثقيلة. قطعان منتظمة. متشابهي السمات. يطلقون اصواتا لامعنى لها. ينظرون الى الناس المتجمهرين حولهم. نظرات معبأة بالعداوة. نظراتهم موت. شبابيكهم المنفتحة في الوجوه سبل تؤدي الى الجحيم. كلهم يسبحون بالازرق. ولا شمعة تضيء الجوار.

جذرهم اصفر. سمة مانكنظ به الجعب. ولون الصحاري القادمين منها. رقوش توحي بالنماء وعناقيد عنب ونوت بري. غير انها تميل للاسود.الى الخلف شبابيك مغلقة. لاتظللها شناشيل او عقود. اطر فقط. عائمة. خربة. كأنها آنية من ضباب كابوس. شباك يخبئ امرأة حائرة. وآخر لا يحجب خلفه سوى كتب صفراء.كابوس يملؤ الخيال ويهيمن على القماشة والفضاء. ونحن في حضرة اكسسواراته نتأمل ونرتجف.هل عشنا ذلك الكابوس ذات ليلة؟ هبطت الغيمة الصفراء من السماء. وغطت رؤوس الجبال وحقول

العنب في المنحدرات. البيوت وضفائر البنات التي تنقافز من الرعب على الاكتاف. واديم الارض المغطاة بالنرجس.عمّ الموت وتناثرت الاجساد في الطرقات وكان الشيخ الكبير. الذي لم يفص لحيته منذ اسابيع. يستلقي ميتا قرب باب خشبي مشقق الطلاء يحتضن واحدة من حفيداته.هل تتذكره جيدا؟ ذلك الكابوس الذي جلبوه مع اهلتهم وصولجاناتهم وجزماتهم الثقيلة. ام انه كامن هناك. في الاعماق السفلى من الذاكرة. في القاع القصي من ارواحنا.

صالة البهاء

لف في الشوارع ودار. كان النهار ألقا. ضجيج المدينة بشتت افكاره. فتوغل في الازقة الفرعية هروبا من نداءات الباعة. واشعة الشمس الحامية. وهذا الصيف الذي كان مليئا بكل ما هو طريف وجارح. لذيذ. وشاق.زقاق يسلمه الى زقاق بمشي دونما هدف واضح. ولا من فكرة في رأسه يستفر عليها.حتى جاء الى باب فخم. من حديد مشبك. تسيل منه موسيقى عجيبة. لاتسمعها الاذن. لكنها تسري في الجو. تستوقف الاحاسيس. وكأنها اياد لاعد لها تتشبث به.ما كان منه الا ان دخل الباب فاذا به يقود الى درج صاعد الى الاعلى. درج نظيف. بلاطه يتلامع كأنه بركة ماء.عند استداراته وضعت مزهريات من الفخار فيها نباتات صغيرة زرقاء اوحت له ببهاء المكان.الموسيقى الخفية تتصاعد. تهب عليه من الباب الزجاجي الذي دخل منه. صالة فسيحة مغلقة. من غير شبابيك. فيها لوحات غريبة مثبتة على جدران باحجام مختلفة. قسم مضاء بانوار مخبأة في الجدران وقسم معتم.

شجرة تنمو على هضبة. لونها اصفر واحمر والشمس مائلة للمغيب.في المقدمة عتمة تتناغم مع الشجرة المعتمة. شفق

بعيد. تتناثر فيه غيوم توهجت حتى يحسبها الرائي جمانا سائلا. نهار في طريقه الى الزوال. والاشياء في طريقها الى عالم الليل.ادخل جسده في العتمة فغراه الرعب. فتراجع هاربا الى دعة الموسيقا والفة الصالة. من اين يشع النور؟ورفة من ضوء. زهرة شمس. ذؤابات الشقائق برق في برية.امراة تلبس رداء شفافا تتطلع الى نافذة. النافذة متوهجة باللون. والرداء ابيض. انها تقف متأملة. مترقبة. حبيب يمر ام رجل يمضي! خال نفسه ذلك الحبيب. ابتسم للمرأة المثبتة جنب الباب سوى انها لم تبادله الابتسام.في الغرفة عتمة. لا بد ان يكون ثمة طاولة للزينة وخزانة. ملابس مبعثرة وجرائد قديمة ومسحوق وحدة اشبه بالغبار. كان يغطي كل شئ.

حدق فرأى حافة ارض. متآكلة. عروقها بارزة. معادنها تتلامع. حديد ونحاس وفضة وذهب وبلاتين. لاتنتمي الى مكان. لها سمة ارضية فقط. يتحدر منها شلال ماء. وعليهاغيوم عتيقة.لحظة الخلق. ضباب. خمرة مندلفة من جرار. فينيقيون. كنعانيون. بابليون. ميديون. اغارقة. نبيذ وجعة. لم يفرقهما فم. ومساقط مياه وانثيالات الوان. اين الفلاح الذي يسير في الطريق خلف حماره المحمل بالعنب والتين وسنابل القمح؟ فالت الحافة للماء كف عن السقوط. قال الماء سقوطي حياتي.لوحة خارجة من حلم. لوحة غيوم او بحر. زرقة وخضرة ومساقط ضوئية.ظلال جزيرة او غيمة داكنة. مقطع من بحر او سماء.جنة. شاب يعزف على مزمار ينكئ على شجرة. حديقة من الازهار. شقائق النعمان سالت من الصورة وغطت جسده ثم سالت بعد ذلك نحو الدرج. مرافقة الموسيقا نحو شوارع عاجة بالضجيج. لقد نسي خطاه في الازقة وراحت الموسيقا تفتش عنها. شال البنت لوحة لم تعلق على جدار. والورقة

التي سقطت في الحديقة قبل حين. هجست لابد. بقدوم الخريف.

ضوء بعيد ينخلل الجذوع. شعاع للحاء. للب. للقشرة التي كتب عليها العاشقون اسماء حبيبات وهمبات. كن احمل النساء. ثم يخفت الضوء كلما تقدم الى نموز الراعي. عازف الشبابة في حقول القمح. وقد كان هو نفسه الذي يبعثر موسيقاه في الرسوم وبين الكراسي وعلى بلاط الدرج.مد يده وتناول المزمار من بين شفتي الراعي.حاول ان يعزف مثله. وحدته. اساه. فلم يطاوعه لحن.ارجع المزمار واكتفى بالنظر. اذ لاخلاص امامه من متاهة المدينة. لا ملمح للراعي. قبل عشرات السنين كان راعيا هو ايضا. ولا يزال الندم يملؤه لانه لم يتعلم العزف على المزمار.لن تكون حياته كما هي الآن لو تم له ذلك.

اسطورة بابلية. او دينية. حول مكان اسمه الجنة.قطوف دانية وجوار واثمار وانهار من لبن وخمرة. وتلك الموسيقا رداء.حلم لامرأة في الضوء. داخل السرير. باب مفتوح. وشاب عار يحمل كأسا ضخمة من النبيذ. وثمة وجه قادم من الظلام.خيانة سافرة. ترتشف منك الكأس وتفكر بثان. النوق الى شخص آخر. يحكم بني البشر. لا تكذبي. يذكره المشهد. بصور قديمة. كانت امه فيها تتحمم عارية امامه. يداخله العجب من اسرارها.بالعري. نسترجع امنا. تارة نصير نحلة وتارة نصير تويجا.انظر المرأة الرافصة قال لنفسه. راقصة وعارية. شالها في اللوحة لوحة ثانية.

وكأن تلك المشاهد مقبّلات لما سوف يأتي. لذلك العناق الابدي بين الانثى والذكر. منه تتناسل الشوارع والازقة والحانات والاردية الملونة وازهار الحدائق المنسقة. وتلك المسماة مدينة.مضاجعة. هي اصل الحياة. حمرة في مكان التواصل. دم. لحظة ولوج الرجل في

المرأة. اولحظة ولوج المرأة في الرجل. تنيك البذارهي. والضوء الاصفر بؤطرهما كما لوكانا في رحم.انهما جالسان في شعلة من اضواء خضر وبنفسجية وحمر. من اجل ولادة قادمة. امتزاج جسدين. ومنظر بحري آخر. غيوم في السماء. صفراء وبرتقالية.كأن شمسا تشرق عليها. او كأنها شمس شتنها القدم. ولا جدوى الدوران في الفضاء. ءثمة زرقة. للحظة تمر على كرتنا الارضية. لحظة خالدة. حيث لايعرف فيها من اين مصدر النور. اهو من السماء ام من العين الباصرة.الرحم نور والشجرة نور وتلك الصخرة الموشكة على السقوط. من حافة المنحدر. نور هي الأخرى. وتلك. بنظرها. صالة البهاء.

كانت تميس امامه. وكانت الحبيبة في زمن ما. عشتار الراقصة.جدائلها تلتف حولها. مثل اخطبوط. زهرة بنفسج. مع نشوة. وهناك رأس لغزالة. بقرنين طويلين. امرأته تمثل النساء أجمع. لحظة الانتشاء. رقص الجسد بشساعة الابتهاج والحرية. حين تنكسر الاسوار وتتهاوى القشور القديمة المصنوعة من تعاليم وطقوس وممنوعات واعراف.الجسد ضوء غريب بين الابيض والاصفر. والاخضر. عازف الكمان. شارياه. لحظة خروج الموسيقا من الجماد. روح الوجود. نافذة دمشقية. مقرنصة مع الشبكة الحديدية. ونباتات متسلقة مع بقع ضوئية صفراء وبرتقالية.بعد قليل سيطل وجه من زمن لاينتمي الى زمن.يتوقع خروجه من بين نسيج القماش وزوايا الاطارات وصفحة الجدار. بل من ارضية البلاط والسقف ذي الثريات والمصابيح.لايرغب ان يرى وجهه. لاهو بالذكر ولا بالانثى. مصنوع من موسيقى لاترى واطياف وخيالات وغيوم.دخل اللوحة. وقف جنب المرأة. داخل العرفة المعتمة. ثم قال للمدينة حدثيني عن نفسك. قالت: انك الآن فيها.

جماليات مكان

قوس يطل على قوس، وبلاطة تعانق بلاطة منذ القدم، منذ ان كانت البيوت ملاذا لبني البشر. فيها يطلقون احلامهم فراشات ملونة، وخيوطا قزحية ترف مع الغبار بلا رقيب. فقوس المدخل فتحة رحم يدخله البشر الى الجوف، يصطبغ باللون الناري، اللون الثقيل الذي يخفي البلاط والحجر والملاط ومواد البناء التي ستحمل غرفاً ذات نوافذ. كم من العيون حدقت في الساحة من تلك النوافذ مراقبة حبيباً يطل لمحة ليختفي في منحنيات الازقة المفتوحة بعضها على بعض. مربعات من زجاج معشق تنتهي بنصف قوس الوانها قزحية، احمر وازرق، اصفر ولازوردي. وخلف تلك الالوان ستائر شفيفة، ثابتة، تخفي اسرار فاطنبها.

يدخل الهواء ولا يخرج. تُنث الأهات فتنفذ من شقوق لاترى، هاربة الى الفضاء. خشب من ابنوس، زان وحور، صفصاف وتوت، تتداخل فيما بينها، تصنع ابوابا وغرفا ومخازن وبوابات. مطر ينث، ريح تعصف والبيوت قائمة تروي للانسان حكايته التي لا تنتهي. خشب والوان وصخور وحكايات، وفي خلفية المشهد مئذنة ترتكز على كتلة

مـربعة صـفـراء من القـدم بناها وال من ولاة دمشـق. اصفـر وابيض. مزاغل واقواس. صغيرة وناعـمة. بنناً منها اصبع يطلق نداءه الى الرب دون حـجـب والعـين ترى صـوت المـؤذن بجلجل في سـمـاء ذات زرقـة موشـاة بالصفـرة. فينتـشر سلام قلق. قلـق تلك الغرفة المـائلة في الطابق الثاني.

كـانت الازقة تتلوى بين البـيـوت. كأنهـا انفاق. مـربعة الهـيئـة. تشبك البيوت فيما بينهـا. دخل الرجال فلم يخرجوا. هاموا في الازقة الارحام باحثين عن عتمة لذيذة. تطفئ شـوقهم للمحبوبة المتوارية خلف حجابها. زقاق ينفذ الى زقاق وزقاق بغازل آخر. والفضاء ظلمة.

غاب الحمـام عن الفضاء وهجرت السنونوات طبـرانها. وانتقلت الكتل من وجـودها الواقعي الى وجـودها المثـالي. الناصع. الذي يخلو من البشر والفوضى. من قصاصـات الورق ومسائل المياه. كل بلاطة تحن الى روحـها. كل قـوس يروم اكمـال نفسـه. والظلال شحـيحـة. فشمس الخيال اشد قوة من العتمة.

لو اختـلطت الـوان المكان لشف البـياض وارتسـمت هالة نور تهيـم في رحاب الافق. ذرة في قـاسيون وشـعاع على الغـوطة ووهج يمسح خدود الربوة بحنو.

أنر مصباحك وتوغل في ليل التـاريخ. انت في راحة دمشق. فتش عن سيف اموي معلق على ذلك الباب المـوصد. نحر عن طومار كتب يتكئ على زجاج تلك النافـذة المسدلة السـتائر. وانصت الى المؤذن الحلبي وهو يقـرأ أذان المـغرب بنبـرات امضـهـا الفراق والشـوق الى جبال الشمال.

باب يغلق باباً ورتاج يغلق رتاجاً. بصمات وحدوس واشواق. وصهيل

الخيول يتلوى في العطفات. يأتي مجلجلاً من عتمات الازقة. انك في دمشق القديمة قدم حجارتها وانهارها وجبالها وقصصها التي تروى في ليالي الشتاء.بردى غير موجود. لقد تاه بين الحارات. لم ترشده سافية. تناثر ماؤه فلم يلمه حقل. ونعثرت على صفحات مائه واجهات البيوت العتيقة المشققة الجدران المهترئة الخشب. اصبح سجلا لساعات تمر وايام تمضي وقرون هائمة على وجهها. باحثة عن مدينة لا تمسك. اسمها دمشق.

وقف الصبي خلف شبكة من الاسلاك الناعمة. نور حول الاطار. وسواد في النافذة. والنافذة مؤطرة بالقرميد. القرميد غير مفخور. متآكل.كان الصبي يتطلع الى الزقاق. وكان فارغا من المارة. لكنه ظل يبتسم للذباب المتجمع على القمامة. مترصدا مرور بائع الذرة.غابت الشمس ولم تمر العربة في الزقاق. من يصدق ان في تلك البيوت المتهرئة. جدرانا وشبابيك وسقوفا. طفل لم يأكل عرنوس ذرة ذلك اليوم؟

غرفة تميل نحو ذلك القوس الكبير. بها من عشق السقوط ما بها. ملت وقوفها الراسخ ليالي وليالي. ترشف من اضواء نجوم ثاقبة كالمصابيح. خطوط. المكان خطوط هندسية تطلقها الارض. مرة الى اليمين ومرة الى الشمال. تنحني فتكون قوساً تمتد فتصبح مئذنة. تلتف على نفسها فلا تبلغ الدائرة. تستعصي الدائرة على التخلق. فالخطوط مربعات ومستطيلات واقواس فقط. هكذا يفرض الخيال نفسه. في مدينة اصبعها في المجرة واقدامها بين شروش التوت. هكذا تقول الفرشاة والريشة واصبع اللون. والصمت الذي يصل اللون بالعين. الاشكال بالذاكرة.

السماء، مربعات صلدة، نجوم وأقمار وحمام زاجل، والارض معينات جافة كامدة، وكرمة تجلل مدينة كاملة، وما بينهما مكان يطمح الى الخلود.

مروحة العتمة

تعبث الفرشاة باللون مثل طفل صغير يكتشف محيطه الضيق.

يسمي قبضة الورق نقودا، وحفنة التراب سكرا، وجذاذة الغصن سريرا للعائلة.

يصير الاسود فراء لقطة، املس مشعا، يعكس مساقط الاضواء المتبعثرة عليه من ثقوب نافذة ما.

يتمطى الاسود على الورقة، ثم يطغى على الاحمر، ويجاور الاخضر، ولايلبث ان يلفع الوردي كما عروس تسري على جمل في صحراء الفكرولا يلبث الاسود ان يتشظى الى بقع كأنها جزر معزولة،ينشط ليصبح لوامس مشعرة، تخفي الاربعة المكونة من عناق سمكتين:مروحة للعتمة، دوامة في سيل عاج بالغرين، غيوم زرق في فضاء سحري ترتسم في العلى جبالا ووديانا، اشجار سنط ودلب، ديناصورات وماموثات، سرعان مايلتهم بعضهاالبعض او تتداخل فيما بينها.

نحن ازاء طبيعة ثانية، كل ماقيها محض اوهام:شجرة الدلب

ارجوحة الشمس قبعة والهواء طائرة ورقية يلهو بها صبي. الوجه رغيف خبز والدائرة تميل الى المثلث. ومابين نارين تتقافز الافكار نحو مجسداتها.

جمع الرجل قبضة من القواقع. حشاها في جيبه. وظن انه سيسمع رائحة البحر ويشم لون الموج. يلمس حزوزها وتعرجات اصدافها.كان يسير مأخوذا بافكاره. حتى فاجأته القواقع في نهاية الزقاق.أخذت تتقافز من جيبه الى الاسفلت. تسعى للهروب من ذلك السجن المعتم.

اعداد واسماك وجبال وافيال. وفواقع حية لزجة الاجساد. ترقص برهة امامنا. على مسرح اللوحة.لكنها تغير اشكالها ما ان يغمض الجفن او يسرح الخيال خارج المستطيل. لتعود بعد ثوان تمارس الخدعة نفسها.

خدعة ملونة لكنها لذيذة.

المسرح مسرح الوان يبغى اضاءة الروح وقذفها الى جنة المرح.

الوان مرحة تصوغ اشكالا مرحة لعيون تتطلع الى المرح والقصف.

الأيام السبعة

اطال الكهل تحديقه في الجدار. كان وحيدا. في عينيه وهج غامض. وافكار لا تسبر. توحي بأنه قادم على مغامرة لايعرف كيف تنتهي. وكان الجدار صفحة بيضاء. تتلاعب عليها الاشعة. وتغمرها بألوان رمادية متدرجة نحو الصفرة.مع الالوان ابخرة شفيفة وخيالات وانعكاسات لاتجسد شكلا محددا.ضوء يندغم بعتمة.رطوبة وألسنةٌ مائية وظلام.يقع خالها بلا حدود. وسيول من اقواس قزح وهواء كأنه ملايين الخيوط تلفع الكون.في كل ذلك. ثمة مسحة من الضجر.من الفراغ الهيمان الى الامتلاء.كان الجدار فراغا شاسعا.من ابن يبدأ. سأل نفسه.وفي الذهن اشكال واطياف وعالم هلامي لم يتشكل بعد.ثمة غيوم تموج لها هيئات غير واضحة وخطوط وبقع وبحار ملونة وظلال.كلمات وحروف ورموز ظلت تتوالد وتنمو وتندغم طوال ازمان لاتحسب بالسنين.الكرستالات الضوئية هناك. في زاوية من الرأس. وكذلك بلورات الذهب والتراب والنار المتأججة والمياه.والجدار خاله يمتد ويمتد الى اللانهاية.مني. قالت الشجرة غير المرئية.وهكذا ايضا البشر والفيل والمرأة والبقرة الناظرة الى

العشب التي اخنبأت في بحر البياض.بل مني. قالت الكلمة.في اليوم الاول. كتب الكهل: طائر الرعد القاتل.فرش فوق الكلمات مستطيلا ازرق يشوبه قليل من البياض. وفي داخله رسم ذلك الطير بهيئة عظاية مجنحة. ذنبها ينشطر الى ثلاثة فروع. وكان الرأس رأس سلحفاة تمشي ببطء على ساحل رملي.الى اليمين. اعلى الجدار. تخيل مخلوقا ضخما بقف منخشبا. على قوائم اربع.جلده ثخين مفضن وينتأ من رأسه الضخم انبوبة مطاطية. غليظة من الاسفل. مستدقة عند النهاية. لم يلبث ان اخترع له اسما يلائم تلك الضخامة فسماه فيلا.ودون ان يدري السبب طلاه باللون الرماني مع تاج من الذهب.

لم تكتمل صورة الجدار. اذ حين حدق في اليوم الثاني الفاها ناقصة.رسم بقرة حمراء الجلد. بلا عينين. نفف صانتة. بهدوء مشوب بالحذر. لكنها تنظر نحو بقعة معشوشبة. العشب فيها ازرق يحتضن ازهارا زرقا هي الاخرى. وشاء ان يخربش بالاسود قامات لنساء ملفعات بالعباءات يتجهن الى مكان مجهول. كن يسرن جادات لكنهن دون ملامح.رأى امطارا تنهمر على سفوف وأنهاراً تتوغل بين غابات. صحاري جافة وبراكين ودبابات صغيرة الوانها زاهية. لكنه صرف انتباهه عن كل ذلك وظل يحدق في الجدار.

في ظهيرة اليوم الثالث. تاق لأشياه يسامرون وحدته. يحملون الملامح نفسها.يبسمون ويضحكون. يفكرون ويرسمون اشكالا وحيوانات. يخطون كلماتهم على الصفحات الفارغة. الملساء التي تتوق الى الامتلاء.رسمهم رتلا. وجه يجاور وجها.بعض تلك الوجوه خالية من الملامح. او حزينة. بعضها مفتوحة العيون.بشرينظرون

بدهشة الى الاشياء. بينما قسم منهم لاتبين من قسماتهم الا خطوط رفيعة. والخطوط الرفيعة تلك اوحت باللعب. في صنع شئ بلا معنى. لكنه موجود. فحمل آلة حادة وراح يحفر في الجدار عشرات الخطوط المستقيمة المجاورة بعضها لبعض. يحزمها احيانا خط عرضي مائل قليلا وكان اللون لون القهوة المحروقة.

وفي اليوم الرابع شاهد ان ثمة فراغا كبيرا في الجدار. فبدأ برسم رأس بشري وكان امرأة. فمها احمر وعيناها واسعتان. تنبت في رأسها ازهار صفر وشجيرات اشبه بالسرو. شعر ببهجة الحب وارتجافات تحت العينين وصفاء داخلي لم يستطع وضعه في كلمات.على ذرى السرو يحط عصفور. وفجأة ارتسمت في الذهن بنت صغيرة. فال لها طبري. فاذا بها تحلق في الجو لتمسك ذلك العصفور. غدائرها تتبعثر في الهواء.

جسد المرأة ضخم. رقبتها طويلة. تتدلى من اذنيها افراط مذهبة. وثمة وشم يبدأ من الشفة السفلى لينتهي عند التقاء النديين.كل ذلك رآه جميلا. جميلا وساحرا.لكن البياض ظل مهيمنا على الجدار.لم يمتلئ بعد.فكر الكهل وهو يقف امام مخلوقاته في اليوم الخامس.في الافق شموس ودوامات اضوية واشعاعات تنبع من مكان مجهول لتسافر الى مكان آخر غير محدد.الجهات لاتلمها والفضاءات لا تحتويها.

من كتف المرأة رسم شجرة بأغصان واوراق. تمتد في الفضاء. جعل ثمارها ذهبية. توحي باللذة. ليس عليها اطيار ولا يحركها نسيم ساكنة. جذورها تمتد الى قلب المرأة. من هناك. ترتشف غذاءها. الغذاء الذي سيصبح اوراقا بيضا وثمارا ذهبية ومسامات.

الثمار كأنها مصابيح. عينا المرأة تشبه سنونوتين.

قال طائر الرعد للشجرة : انا السماء وانت الارض.قالت الشجرة انا السماء والارض. جذوري في التراب واغصاني في الهواء.وشعرت السنونوات ان لديها رغبة في الطيران فطارت فوق الشجر والعشب الازرق ومديات النجوم.وكان كل ذلك بهيجا ومفرحا.كان يدخل السرور الى قلب الكهل الذي ملّ وحدته.في اليوم السادس صنع البحر الى يسار المرأة.لوّنه بالازرق. ثم خط على الموج: الروع الاكبر.وعلى الضفاف انتهى بالكلمة التي بدأ فيها. وكانت لافتة طويلة فيها: جور ساعة اعظم من معاصي مئتي سنة.وتخبل البحر غابة تسكنها قناديل البحر والاخطبوطات والقوافع وسمك الفرش والاحياء الصغيرة المكونة من انسجة بحرية شفيفة.الفيل صار احمر والعظايا لازورد والتفاح ذهبا وفم البنت كرزا. البقرة حمراء والنساء سود والبشر بنفسجيون.ظن ان الجدار لما يزل ناقصا فترك الامر الى الغد.

عند الظهيرة وقف امام الجدار متأملا. لقد اكتست الاشياء التي عاشت ذات يوم في رأسه وجودها على الجدار.وقف رضيّ الوجه. فماطنه ناقصا صاريوحي بالكمال.جلس على الارض ليستريح. شعر بالراحة والبهجة والفرح. بالسرور والرضى. فما فام به حلو. يستحق ان يمجد الى أبد الآبدين.

قافلة

كانت القافلة تغذ السير الى حتفها. دون عبرة. روح هائمة في بلقع الرمل.

خط الافق يتعرج بانحناءات لطيفة ليفصل بين الارض والسماء. الارض رمال وعرفج وحصى. والسماء نقاب شفيف من غيوم مزرقة. جاءت الجمال من التاريخ الموغل القدم. مسيلة الاعناق تقطع الصحراء بصبر دون ان تعرف الى اين تمضي.انها تسير دون هدف. محملة بالمطارف والمؤونة وقطع الثياب والمياه. ليدو رحل في طريقهم. هم ايضا. الى الاندثار.

الجمل. لؤلؤة الصحراء. ملكها غير المتوج. لونه من لونها حركته من حركة رمالها. بطيئة مخادعة. يسير وتحسبه واقفا. فالآثار تمحى هنيهة بعد اخرى والبدوي في هذا المشهد الكئيب اصبح كائناً غريباً. يرتدي عقالاً على كوفية بيضاء يلثم بها وجهه. ويلف جسده بعباءة من الصوف.يرتدي دشداشة خضراء وحذاء بنياً ثقيلا. وملامح وجهه معتمة وكأنه يستشف النهاية التي تنتظره. هو وجماله. فطر وكمأة. بصل وكراث وزباد وحنظل. وسراب. تحسبه

ماء. اذا لحقه المرء يهلك واذا متع فيه الباصرين بورثه الخديعة. والموسم شتاء قاس والارض فاحلة.الطرق مخاتلة. طريق لونه قمحي ينتهي بكهف. وطريق سودت اديمه الاقدام ابتلعه الرمال وآخر تفتضه خفاف الجمال في ايقاع بطيء خالد.

ما بين الارض والسماء خيط رفيع من الدعوات. دعوات على شكل مطر وخصب ومياه جوفية وبساط اخضر. تعوي الذئاب فتجفل شلة من خراف يقودها الرجل. ينبح كلب فيعود الصدى راوية للفراغ والسراب. انها حكمة الصحراء. ليس من مياه في الرمال ولا خضرة في الافق. جاءت الريح ومضت الريح والقافلة تسير. اشرقت الشمس وغابت الشمس. والصحراء هي الصحراء. مسرح للضب وبنات آوى وضباع الليل الباحثة عن جمل اجرب تركه البدو او جثة بدوي تاه في الوديان. نار في الليل منارة للتائهين.

قبل ان تدخل العين اطار اللوحة كان ثمة بيت شعر. اسود يرتكز على قضبان من خشب. تقطنه امرأة ورجل وربما اطفال ايضاً. في زاوية منه قربة الماء وكيس الطحين وعلبة السمنة. امامه مراح اغنام. ضوت فيه دواب كسولة تنتظر وجبتها من التمور والشعير والتبن. تلال صخرية داكنة تفزم بضخامتها ذلك البيت. المغطى بالدخان. وفرسان يقضمان أزهاراً زرقاء. والسماء مبقعة بالغيوم الصفر.ثمة موقد وساج للخبز ودخان يصاعد حاملا رائحة النبات البري والانتظارات الطويلة لضيوف أتعبتهم الصحراء لكنهم لا يأنون.المرأة تنظر بين الحين والآخر الى صندوق زينتها المخبأ تحت الاغطية. وفيه البانسون لتعطير الجسد. القرنفل للقبل والصابون المهيّل والمرآة الصدئة والمكحلة المليئة بالاثمد وملقط الشعر

لتزجيج الحواجب. امرأة من رمل وسراب وعشب ربيع وغيوم. امرأة بريّة لكنها لا تنسى زينتها. تدخل العين في بؤرة اللوحة فإذا البيت مرزوما على ظهور الجمال. والمرأة غائبة والرجل يمشي الهوينى نحو هدف غير معروف. وجمال تسيل اعناقها مع سفوف الرمال ورائحة الجفاف.

القافلة تغذ السير الى حتفها. انه هناك. كامن وراء أكمة. منغل في شق ارضي. متوار وراء فكرة لسراب. لكنه لا يحس. ينتظرها خارج الاطار.

الرقصة

انحدرت الطائرة الصغيرة، من عمق الفضاء تجر وراءها ذيلا احمر منقطا باليقع السود. بعد ان دارت دورتها السريعة الخاطفة، فرسمت بيضة شبه مكتملة.لم تكن الطائرة من طائرات الطفولة التي يخفق الهواء في ذيلها ولا طائرا من خيال تطلقه الذاكرة.كانت طائرة حقيقية، زبدة للافكار والعقول المجردة، والحسابات الباردة على الاوراق البيانية قبل ان يلصق على جنبها شعار الموت.اطّرتْ اشخاصا ثلاثة يرقصون على قعقعة الصوت المصم، رقصة الموت، رقصة المذبحة وهي تدب على الارض، مثل سلحفاة، تحت اشعة شمس حمراء من الغضب.كانت البيوت منتظرة وصولهم، النوافذ، الابواب، اوراق التوت المسترخية على الاغصان، الشوارع، نعابير الوجوه، كلها في لحظة انتظار.لم هم عنيفون وبرابرة، يفتحون في الاجساد ثغرات دائرية ليمر الموت باذخا، والشهود غائبون والشمس تفغر فمها من دهشة؟

بشر ويقتل بعضهم البعض؟ياللغرابة!

امام عجلة الموت تنمسح الملامح، تتشابه الاوجه، ترقص الاجساد المنخوبة برصاصهم القاتل رقصة الغياب، والسفر الى عالم الظلام

والستارة السوداء تنتشي بإنسدالها خلف المشهد. العين ترصد مسرح عرائس. لممثلين يؤدون ادوارهم ببراعة. حلم غابت في تفاصيله اجساد غضة لجنود في صحراء عارية. حيث اللون الاحمر سيد الخليقة. انه البدء والمنتهى. الالف والباء. ايها المصير المتوهج بالنار الذي يلتهم دون رحمة البشر والابنية والثمار الفجة والعيون الحانية والظلال والاحلام المصبوغة بالسهر والقلق والنعاس. اينها الحرب التي لاتهدأ. حبزبون الشوارع المعبأة بالخوف. ساقية كل شرير ومغامر. من سمّاك قبرا. من سمّاك جبّانة؟

هبط رسول الموت حتى لامست اجنحته ذرى النخيل واطلق سهامه على الارض. صعد الى السماء فأودع الحياة في جب العتمة. وخلّف الحريق هدبة لاترد.ماهي الاحاسيس التي راودتهم. ياترى وهم يفضون جعبتهم على الارض؟

الدورة الفظة للطائرة تستولي على العيون. تؤطر المشهد. تلمّ السلام من القلوب مثل الكرز. تقذفه خارج اللوحة.كان الرعب اكبر من خيال. ولم تكن اللحظة سوى خط فاصل بين الحياة والموت.انها قصة هذا الزمان. نروى كل يوم في الحانات والازقة. في المدن الصغيرة والمقاطعات. في الجبال والوديان. تلف كرة ارضية مقذوفة في كون اجرد.

الاجساد المنخوبة بالرصاص ترقص على مضض.الشمس افحمها الاحمرار تنظر بفم فاغر الى المشهد.ذبالات النار التي تلتهم البيوت علامة استفهام لمن يتأمل. والسماء سوداء من الخجل. ام من الدخان خارجا من لغة الكيمياء؟غابت النجوم وسدت المسالك وخلدت اللحظة الى الابد. يد الفنان تفترش عينين دامعتين فتمة شعور طاغ بالعجز. اذ لاسبيل.الرقصة اكتملت منذ حين. بعد ان ادرك الجميع أن تلك الطائرة لم تكن طائرة من ورق وخيطان.

حلم

كان يمكن لهما ان يمضيا الى الجبل. هناك السرو والصخور والكهوف. صدره مليء بالرغبة للقيام بذلك حتى لو انها ستكون الرحلة الاخيرة.كان جالسا في فراشه ينطلع من الشباك. وينتظر. في يوم لن يتكرر من ايام الشتاء.شجرة الليمون في حديقة البيت المقابل. قربها الدكان الغريب المظهر. الذي دأب على قراءة رموزه المرسومة على الباب كل صباح.المثلث المتساوي الاضلاع. المرسوم بعفوية غير مقصودة. والغزالة في الوسط تقف منتصبة الرقبة وكأنها تهم بالقفز خارج المثلث ثم تسلق شجرة الليمون.من الذي سماها الغزالة؟لانها تجلس وهي تثني سافيها تحتها؟ ام لجيدها الرفيع ؟ام لعينيها السوداوين اللتين لاتستقران على شئ؟ الشباك المغلق. ذو اللون القهوائي وقد رُكّب في مساحات السواد الشاسعة. وهو محاط بمساحات صفر كونت مستطيلا يزحم الخطوط السود والعرضية الممتدة من جدار الى جدار.وفي القمة يبين الفيل مقلوبا. يحاول بخرطومه تلقف الجواهر المنتشرة في اقصى الباب العلوي.جواهر تسبح في مشحات من غيوم صفر كانت

اشعة الشمس تحولها الى سائل رجراج من الذهب. هي وثمار الليمون.الجواهر بيض والليمون اصفر. ثمار من ذهب واوراق خضر تتعرى في الشتاء وتتدثر خضرة في الصيف.تندس فيها العصافير والحمام. تبني اعشاشها. تفرخ. تطير. كل ذلك يجري تحت باصريه. شتاء بعد شتاء وصيفا وراء آخر.

السماء فوق البيت زرقاء صافية. والشمس. رغم انه لايراها. لكنه يحس وجودها. هناك في زاوية ما من الكون.وثمة كثير من الاشياء التي يحس بها دون رؤيتها.هو وهي. في الجبل الاجرد. المهيمن على المدينة.هو والغزالة. ينقلهما طائر عملاق غريب الهيأة. بعيدا عن واجهة البيت والباب ذي الرموز وضوضاء العصافير في الشجر.

طير منقاره مديب ابيض. رقبته قصيرة. عيناه واسعتان. ابيض الرأس. بجناحين هائلين. اسودين. له في الظهر دائرة سوداء تحيط بها دائرة بيضاء. وذيله عظيم. وفي الجناحين ريش اسود وبني. ومبقع.لم يسقط من سماء ولا ولدته ارض.له فخذان عظيمان. غليضان في الاعلى مستدقان في الاسفل. بمخالب طويلة. في تلك المخالب يتعلقان.يطيران في السماء. عندها يربان الشوارع والازقة والمتنزهات التي طالما سارا وجلسا وضحكا فيها. الثواني تمر والساعات كما لو كانت اغماضة عين. والبهجة رفقة بين شخصين.سيحلق بهما في الهواء عاليا. يسبحان في فضاء المدينة ويعدان اشجار السرو. والحور. ويمتعان البصر بالمخلوقات الارضية في الاسفل.البيت الطيني ذو البابين الاخضرين من الخشب وشجرة الحياة فوقهما. المرأة السائرة خلف البقرة في حقل المدينة. وبائع الذرة الذي يندفع

بعربته صوب الازقة الضيقة.سيريان تعرج الطريق الصاعد الى الجبل تحيطه اشجار السرو. والتلال ذوات الظلال. والسيارات المندفعة ببطء لكن بهمة الى السفح.ستندفع الى الخلف غيوم السماء والحصى والزمن والافكار المدومة في رأسيهما.والمدينة تتضاءل حتى تصير قبضة يد.سيوغلون في الجبل صعودا الى السفح حيث تقترب الشمس وتبتعد الارض والهواء يفوح بالبرودة.وعند الشارع الممهد بحط الطير ويفكان قبضتيهما عن القوادم واول ما تجبههم رائحة الفول تهب من العربات الواقفة.الصخور المرقشة بالطحالب وبقع العشب النابتة في دهاليز الصخور.باعة الذرة والشاي والقهوة. عربات المشروبات تقف على الحافة. والدخان يتصاعد من الافران الموقدة تحت القدور. والعبق خليط من غبار الفضاء والنرجس الجاف وبخار الارض المتصاعد بفعل الحرارة.

مطر يهطل ومطر يجف.شمس تطلع وشمس تغيب. والعيون لاتكل من النظر.الغجريات يجبن السفح. يزوجن الصبية او يقربن بين قلبين. يدلنَّ البشر على حسادهم ومناوئيهم. يرشقن الوجوه بمسحوق الفرح او الحزن. الذي يكمن في الايام القادمة من الاعمار.يقرأن الحظ في خطوط الكف. وصفحات الوجوه. في تطليعة العيون ورمشات الجفون.ولا يعدمن النظر الى شكل الجسد. فالماضي لابد ان يرتسم فيه. والماضي بوابة للايام القادمة التي تجري بها الاحداث وتمر مثل سيل شتائي.سيطلب من البائع ان يجلب لهما كرسيين. ثم يطلب منه وضعهما تحت السقيفة. في السفح. الى الاعلى زرقة السماء وفي الاسفل قبضة المدينة.يرغب ان يدهشها بأحاديثه ونكاته ووجهات نظره. وسيوصي على زجاجتي

بيرة. اذ هي تحب احتساءها مع سيجارة وقليل من الفستق الحلبي المملح.مائدة عامرة. تشرف على الوادي.رآها هكذا. في الوسط تنكة متأججة بالنار. والخشب يهسهس. واللهب يتصاعد اصفر مختلطا بالدخان.الافكار خفيفة تروح وتأتي. والفكرة تجر الفكرة. من اذنيها. والاصابع تتلقف النار. تندس في اللهب. هربا من صقيع ليل مطبق.الايادي تطلب الدفء.الوجوه تتقي النار لكنها تجلس حول الموقد مسترخية.في تلك اللحظة. ذات يوم. وكانت النجوم ساهرة فوق الجبل. ظنها الموقد الذي يدفئه من صرامة الشتاء.في هذه المدينة المصنوعة من جوامع وباعة جوالين وافران وحدائق وشموس. اكتشف انها لم تكن كذلك.لا يمكن لها ان تكون. فهي مصنوعة لتقدم دورا آخر على هذا المسرح.جاء اكتشافه متأخرا. لكن لايهم. الاكتشاف المتأخر افضل كثيرا من الجهل الدائم.اكتشاف متأخر افضل من جهل في هذه المدينة. الراقدة تحتهم وسط الابخرة ونفثات دخان المصانع واشعة الشمس.

المدينة تحتهم. جوامعها. صوامعها. قصورها الفخمة المحاطة بالليمون والانرج. ضبابها الذي حوّلها الى حلم.لايمكن ان يغلق الانسان جفنيه خوفا عليها من الضياع.الاشعة في السهل والحمام في الهواء.يندفع من الجبل الى السهل. من السهل الى الحقول. يراقبانه بحبور. يرسم قوسا واسعا. يحط بعدها في باحة جامع او ساحة.في حديقة مزهرة أو داخل المزاغل المتناثرة في جدران الابنية والحمامات والتكايا والخانات والجوامع.يمكن ان تحدثه عن طفولتها. هي التي ترعرعت في بيت كبير. ذي حوش واسع تنمو فيه اشجار الكباد والتوت. ابوها سكير وامها ربة بيت.الازقة الضيقة التي

ركضت فيها صبية، لعبت في زوايا الجدران وخلف الابواب المغلقة حيث تنام كل يوم بعد ان تودع الشمس وهي تغرب خلف السفح.اثناء ذلك لابد ان تنطلع الى رفوف الحمام وكأسها الاصفر وذلك الافق الشاسع المفروش على السطوح.وكالعادة لن تبوح له بشئ عن حياتها الخاصة، ربما لهذا السبب تتكلم بصوت هامس وجمل متقطعة.فكل ما يخصها يُصفّى بدقة، يحجب، يغربل، قبل ان يتحول الى كلمات.تدخن بعمق ثم تزفر الدخان مصحوبا بآهة مكبوتة لها امتداد اللبالي المعبأة بالسهر والمؤامرات الصغيرة والخيانات والقصص المحبوكة بذكاء لخداع الرجال، الزوج والاخوة والام التي لاشغل لها سوى حياكة السجاد.عيناها تتوهجان، ثم ترتسم الابتسامة المشبوحة فوق الشفتين الرقيقتين، تلك التي تخفي وراءها الافكار المبطنة والهواجس والشكوك والاحاسيس غير المسموح بالبوح بها، ولايمكن لبشر ان يطلع على خباياها.عندئذ ستمر الغجرية، تجرجر جسدها في الشارع، تتصيد الزبائن، حاملة طفلها بين ذراعيها.تناديها، تبسط لها كفها اليمين، وتبدأ اشعاعات القلق تنبثق من الوجه.تود معرفة خفايا نفسها، لكن عبر مايقوله الأخرون، اما هي فإمرأة لاتبوح بأسرارها.مايعرفه عنها الآخرون هو المهم.وهي لاترغب من احد رسم صورة ملموسة لها..لاتحب الوضوح والاطر، والبوح نأطير، يذكر انها قالت له ذات يوم انها تعشق الشخصيات الهلامية، العقول الرجراجة الافكار والهواجس، التي تخفي اكثر مما تظهر.الاشياء التي لاتمسك، هي ما تحب.

يندرج السفح عشرات الامتار الى الاسفل، لتبدأ اسطح البيوت الزاحفة عاما بعد عام الى القمة، من هنا قفزة واحدة ويتحول المرء

الى حمامة. تطير فوق الوادي وذرى الاشجار وابراج العمارات المرفشة بالالوان.وهذا هو السبيل الوحيد كي يتخلص الانسان من عالم البشر المليء بالخيانات والفظاظة والرعب.شئ جميل ان يتحولان الى حمامتين تندفعان نحو بحر السماء الزرقاء المهيمن على الجبل والمدينة واشجار السرو.ستفرح للفكرة. اليست هي عاشقة للافكار المجنونة؟

كانت النافذة تطل على البيت. ما ان يحدق الانسان منها حتى يكشف الاسرار. يرى الاثاث والقاطنين. يطل على القصص والحكايات. وكل مايخفى بعيدا عن الاعين.تصورها نافذة مفتوحة على بيت غني بحيانه. ببواطنه. لكنه حين دفع الدرفتين لم يطل على شئ.وراء النافذة جدار صلد. والمدينة. التي هي ابنتها. ساحرة عجوز لها الف وجه والف ذراع ورأس.السرو شعرها والبيوت الخربة اسنانها والشوارع اضلاعها والمآذن اصابعها التي تشير الى السماء.الشمس هناك في السمت. والهواء ساكن.لافراش يطير من وردة الى اخرى ولا يحط العصفور فوق الصخور.عيون المتسكعين تنظر دهشة وشغفا وفضولا. والكلام يتقطع والدخان يتراقص حول الكأسين واليدين الموضوعتين على الطاولة.

يحدث هكذا. تقف على سفح الجبل. ونحتها الهاوية. صخور مدببة وحفر وحصى يشبه النصال. ثم يقف هو خلفها. وفيه رغبة ملحة لدفعها قليلا الى الاسفل.يراها تهوي. تتدحرج مثل كرة. تتلقفها الصخور والاحجار وسيقان الشجر المقصوفة. ينطوي الجسد على نفسه وهو في سقوطه الحر. تتداخل العظام مع اللحم. الاطراف مع الحوض. لتصبح كتلة من اللحم والدم والألم

والصراخ.يرى الرعب في وجهها. يحس بأستسلامها المقيت للموت. ذلك الأستسلام المخيف نفسه الذي فرض عليها وجوده أثناء حياتها.

يمكن لهما ان يمضيا الى الجبل. لكن كيف؟انها لاتزال جالسة قربه. على السرير تنظر مثله عبر النافذة. الى باب الدكان الغريب. الملئ بالرموز. وشجرة الليمون والشمس الدائرة في خط ما من السماء.وجهها املس وعيناها عميقتان وشعرها فاحم. لاتزال آثار ألوان الحناء عليه. تتماوج بالحمرة.

ورغم المسافة القصيرة الفاصلة بينهما الا ان ثمة سدا صلدا يقف بينهما.سد من الاحداث بنياه في الاشهر الماضية.انه غير مرئي. ولكن. كلاهما. يحسان به.

فضاء الأماكن

شريان ضيق من الاحمر، يتسامق من ارض متخفية وراء الاطار السفلي،يمتد الى الاعلى، الى دوارة نخليّة. سعف ينشطى اصفر وازرق واخضر خافتا شفيفا. ثم يتألق الفضاء الابيض من بعيد، من خلف العتمات والالوان:فضاء الامل، فضاء الاماكن المجهولة، المنتظرة للراكبين سفن المغامرة، الواصلين في تجاربهم الى قاع البأس، الذي مابعده قاع.الى الاعلى ايها النسغ، نحو نافورة الضوء والخلود واللانهاية.اياد يائسة، آلاف الايدي تمتد من الطين، تنتظر اياد اخرى، رحيمة، تجرها بحنو عشرة انجات الى الاعلى، كي تتنفس الهواء، ترى الالوان في ورق الشجر وحدقات البشر وزرقة السماء، التي احتجبت طويلا عن كائنات القاع.العويل يلفّ، بدوّم، يهيم فوق تلك الكائنات، فوق فضاء الاماكن المجهولة التي لايراها احد سوى المبصرين.

لون عشبي الى اليمين، يأتلق ببيضه الشاسع راسما هضابا وكهوف نور وسوافي من الترجس الاصفر، وجسورا ذوات الوان حمر تصل بين ضفتين:ضفة معتمة للحروب، للكوابيس، للضلالات

والاوهام. وضفه للاحلام.تتعلق الابصار في عالمين. في الاعلى غيمة ذات سواد ورعود واشكال. تنسج وردة مرة وتنسج مظلة من سعف مرة اخرى.في الاسفل. حيث القاع. تتوالد الحياة من بعضها. وتجري التحولات. وللوصول الى القمة ينبغي البدء من القعر. قعر الظلمات.مفتاح الالهي الذي في بني البشر يختبئ هناك. في المباءات والافكار المحرمة. والنشوات المعاشة خلسة. والانكسارات.ذرى السواد في القمة غيمة او جزمة ثقيلة تنيخ على الاحلام.ويراود العين احساس انها امام قدر يغلي لكنه بلافضاء مفتوح.ثمة حاجز سميك. او نحيف ربما. لكنه يظل حاجزا امام الطيران والبوح والتوحد مع المطلق للوصول الى سر الحياة. والخلق والدورة التي لاتنتهي:دورة الموت والحياة. دورة الالم واللذة. دورة الجميل والبشع. دورة الاله والشيطان. الدورة التي تتعقب الالوان في تدرجها بين الاصفر وانتهاء بالبنفسجي. الذي سينهال عليه السواد. ذات يوم.

نساء

ساد السكون في الصالة. ونام البشر مثلما يحدث كل ليلة. ومثل كل ليلة ايضا. أستيقظت الهواجس في روحه. وبزغت أكوانه من الكهوف والمغاور والدهاليز.لقد انتظرتُ. هذه اللحظة. طوال النهار.اطياف وذكريات. تنهدات وضحكات صاخبة. لايسمعها الا هو.فرش مختلفة الاحجام والاطوال. تغرق في جردل من الماء موضوع على طاولة عريضة.تناثرت عليها انابيب الزيت والسكاكين والمقاشط والمخارز الرفيعة والاشرطة اللاصقة.اللوحة المزدوجة على الحامل. والقماشة البكر تنزوي في نهاية الصالة. تحدق اليه بعين فارغة.خطاه لاتكفان عن التردد بين الباب والنافذة. الوجوه. تحاصره. تنظر اليه بشفقة. بود. بكره. وكل تلك المشاعر تنسرب اليه من سطح القماش كي تطوّقه من الجهات أجمع.في المقابل نوافذ العمارة وهي تنطفئ تباعا. كلما اوغل الليل في رحيله. وكلما اوغل هو بأرواح نسائه الراقصة على القماش. في اللوحات المصفوفة على الجدران.أطفا الثريا السقفية. ذات النور البرتقالي. ووقف وسط الصالة محدقا في النساء.

مليكه، فينوس، رائفه، الهام، جميله، لميس، روز، ماريانا، كواكب، منال، كاله، فاطمة، ريبكا.أسماء تجر أسماء. وهذي الأخيرة تنقله الى صباحات ندية وأغطية ورحلات وجلسات خمرة وحوارات منقطعة او مرتعشة.الى بلدان وشوارع ومراقص.الى أنوف وحواجب وخدود وأحناك وأصباغ شفاه وعطور.كان لابسا لمّا يزل بنطاله الجينز بحمالتيه المشدودتين الى صدره. وبقع الزيت الملونة تنتثر عليه. وقميصه المزهر، الذي شكّل توازنا قلقا مع تلك البقع.شعره منكوش واصابعه غليظة.عيناه جاحظتان وفمه مزموم.صفحتا وجهه مستنفع للأنفعالات تأخذه وتردّه. بين الباب والنافذة الزجاجية العريضة. بين الوجه الضاحك والمقطب. الاحمر والرمادي.لقد انتهى للتو من تلطيخ واحدة من اللوحات الناجزة بالسواد. ليهرب من عينيّ تلك السيدة المطلّقة. التي رشته برذاذ من الكره. احسه وقد نفذ الى جسده كعشرات الإبر الرفيعة.شاهد ألْسِنَة السواد تلحس حواشي الثوب الاحمر وبياض القدمين. وتنغلّ في السجادة القرمزية التي ينبعث منها ضوء شفقي يشبه مصباحا مخبأ في الارض.

كانت ترقص في شال أخضر. رقصتها المعتادة. التي لا تؤديها الا حين تكون ثملة. مع موسيقى شرقية موقّعة. وبعد ان تلفّ ذلك الشال على منتصفها، حيث تقف متأملة في الستائر والمقاعد والجدران لحظات. كما لو كانت تستلهم منها شكل دوران الردف والتواءات البطن. ومبلان الرأس. وانتشار الشعر الاسود على الكتفين. طائرا في فضاء المخادع وعيون الرجال المحدقين فيها.

ثم الى اليمين تجلس الحامل. على الاريكة. بطنها منتفخة. وعارية. وثمة شعور بسلام عميق في وجهها. ينبع من كونها تحمل

كائنا جديدا. السرة غائرة في الكتلة الصفراء. والثوب المنحسرعن الفخذين. وكانت يداها حائرتين أين تحطّان.لم تكن تنظر اليه. بل الى داخلها. لذلك شعر بالحنو نحوها. ويتذكر جيدا كيف ترك الفرشاة وراح بمسّد بالابهام استدارة الخدين ليضفي عليهما انتفاخ الحمل ونورد الوجه.يطلي الطبقات اللونية بلمسة الرحمة والانبساط والبقين.انها الام. والزوجة والحبيبة.لقد اراد ان يخلّدها هكذا.للحبيبة شكل اليدين. وهي عشتار التي لاتمسك. وللأم حنو الروح والعينين. كلما بعدت زاد حضورها. وللزوجة انتفاخ البطن. عرفها في قطار قطع النهار سائرا بين هضاب وسهول. مر على بحيرات وأسراب بط. وقرى عصرية تنفث سقوفها دخانا ازرقا. وجسور ضخمة بُنيت من الخرسانة الجاهزة.

الثياب محمولة على عاصفة. الاحمر يحلّق فوق الركب. الاخضر يتثنى على رأس الرجل. المقرفص على الارض. الاسود. يندمج بالتراب في لحظة هروب. والبنفسجي يكاد يغيب في البياض تاركا العري وراءه.عيناه تلاحقان الاجساد في لحظة الانتشاء. او في لحظات تأمل. في الحيوات السابقة. التي انقضت مثل حلم ولن نرجع. غبُنَ وتركن له ظلالهن. على الورق.غبن كما غابت سنوات عمره بأحداثها ومسراتها وأحزانها.النحيفة بلا فرط. والحامل فصّتْ شعرها. والعارية تخلّصت من شحوبها الملازم. وبان فمها احمر مزموما. وجسدها ثلجا.قضى لحظات مع الطوبلة ذات الجيد العاج. جالسا على الارض يوقع لها بفرقعات اصابعه وهي ترفص وتتثنّى في الفسحة المحصورة بين الجدار والسرير. وكانت انوثتها ساحقة. وعطر ابطيها مدوّخا.نصفها اسود ونصفها احمرفي تلك الليلة المجنونة كان

الاحمر معشوقه.صاح ديك عند سفح الجبل. وقالت له طلع الفجر. ادخلتني الى روحك طوال هذه الليلة وما عليك الآن الا ان ترشقني في لوحتك فرشقها قبل شروق الشمس. أبّدها على القماش، جسدا من اصباغ وخيالات وظلال.

تلك التي هناك، أشعرته برغبتها فيه باللمس، والنظرات العميقة، والصوت الراعش كلما تكلمت معه. هي التي دعته الى سهرة في واحد من الفنادق الفخمة.كانت نود ان تراقصه على ضوء المصابيح المتغامزة الملونة، وسط بحر الاجساد المتواثبة في حلبة الرقص. سهرا حتى طلوع الفجر ثم تجولا في الحديقة ذات الممرات الاسمنتية، يدها ترتاح بيده وفمها يقتطف منه القبل، ولوحة الشروق لم تكتمل بعد.

قليلا قليلا بدأت التأوهات والضحكات، الانين والزفرات، تتصاعد من الجدران، تدوّم حوله وفيه، وكأنها سائل لزج، خفّت خطاه، وتباطأت حركته، وأحس بشلل يدب في جسده. وهاهو يقف امام روحه، وجها لوجه، مصلوبا. هناك، على الورق، في الجو الرماديّ الذي كوّنه امتزاج الاسود مع الابيض.بشر على هيئة قوالب ثلج، رؤوسهم غائبة الملامح. مُلقون على ارصفة الشارع، يسيلون ماء اسود، وثمة أبخرة تتصاعد منهم، وتجلّل الجدران المهشّمة، العارية.لم يعد يهموه بشر،لم يعد الانسان هاجسه، روحه ما تهمه فقط.يرغب ان يخلصها من نظرات النساء وملمس الاصابع ومشاهد الحياة اليومية، سيدخل النار المرسومة في زاوية الرصيف.بتطاير شررا الى سماء خالية من الغيوم، خالية من النجوم.يروم الطيران الى فضاء آخر، ولا مانع ان يكون الجنون دليله.قفز من سرادق الاجياد والخمرة

والمجون. ثم وجد روحه في شارع التجلّي والكشف والوحدة.

نفر الدفوف يتصاعد من كل الجهات. مترافقا مع تواشيح وموالات دينية. وقصائد تمجّد الرسول. دراويش ينودون برؤوسهم ويتناثر الزبد من اشداقهم. وتتعالى رائحة البخور المخدرة.وثمة نار موقدة في منفلة طويلة. وعشرات العيون. لاصفة. متوثبة. تنغل في جسده وحده. وكان يود لو يشارك بهذا الطقس الغريب. وينمحق في لغة الدفوف والدرابيش. والسيوف والجمر المتوقد المعد للالتهام.قال له جده يوما ان كل جمرة من جمرات يوم القيامة تعادل مليون مرة حجم اكبر جمرة ارضية.أين الحقيقة من كل ذلك. وأين الخيال؟

انقاض.الحياة حوله انقاض.الضوء في ذلك الشارع رمادي كالح. ولا ذبالات نور في الجوار. والنوافذ لاتضيء.ارواح مطفأة. شبحية. في عيونها فراغ لامعنى له.كان يرقص رقصة الوحدة. الأمل المفقود. الموت وهو يقترب بخطاه البطيئة. لكنّ الواثقة من نفسها.هو الدرويش والدنيا نقرات دف وخشخشات صنج.حرب مرت من هنا. زلزال عاث في الارض فسادا. ام هي خرائب روحه؟ يسير مثل مجنون. ثوبه مرقّعة لاتكاد تصل الى ركبتيه.رأسه عار. وقرطان غريبان يتدليان من اذنيه.لايمشي على الاسفلت بل يوقّع خطواته. بدوزنها. والاصبع الوسطى توحي برقصة لم يقم بها. لكنه يحس انه يعيشها في الداخل.رقصة الروح وقد تجردت من الاشياء و النساء و الالوان والحاجات الارضية التي كانت تنخره كل لحظة.رقصة الرملة للرملة والحصاة للحصاة والعين للعين والنحلة لزهرة الاقحوان.لقد كتب عليه ان يعيش. داخليا. توثبات روح قلقة لاتندهش بمآل.وها هو الآن

بمتلك القوة على التحليق. او على الأقل ملامسة الارض بخفة. عند المشي.لقد ترك نساءه في صالة مضاءة. معبأة بالالوان ثم دخل فضاء العتمة. فضاء الرمادي المؤطر بالخشب. دار دارأن دور. ووحدته سم بطيء.

الصرخة

اكبر من الفم هي الصرخة. يطلقها جسد يسبح في عاصفة. تتناوشه الدوّامات من كل جانب. او تشدّه خيوط متينة الى الجهات كلها.اسفل اللوحة تنضفر المكونات الارضية لعالم ارضي الرغبات والنزوات والكثافة.ورقة فرنابيط. الياف لحمية. فمح. مياه باردة. اصبع من الموز. بيوض. طيور صغيرة كانت تزقزق يوما على غصن.في الاعلى شفافية الالوان وسط عالم الفكر والخيال: العالم الضوئي البعيد والقريب. في الوقت نفسه.ومابين عالمين تقف الرقبة برزخا وجسرا. يربط السماء والارض. مثلما الرسالات السماوية والفنون والسحر والهواء.

جسد هو الاجساد كلها. لاينبئ عن ملمح ولا يشف عن سمة. الفم فاغر من صرخة الالم. والرعب والدهشة. وصرخة العرفان حين تقع العيون على طاقة في زقاق تضيء مربعها زهرة من الياسمين بيضاء. يطلقها جسد يسبح في عاصفة.اسفل اللوحة تنضفر المكونات الارضية لعالم ارضي الرغبات والنزوات والكثافة.في الاعلى شفافية الالوان وسط عالم الفكر والخيال : العالم الضوئي البعيد

والقريب. في الوقت نفسه.ومابين عالمين تقف الرقبة برزخا وطريقا وبوابة وقنطرة وجسرا. يربط السماء بالارض. مثلما الرسالات السماوية والفنون والسحر والكلمة الرافّة على ذرى الفمح واجنحة الفراش وقرون الثيران والهواء.

جسد هو الاجساد كلها. ينبئ عن ملمح و يشف عن سمة. الفم فاغر. من الالم. والرعب. والدهشة. وصرخة العرفان حين تقع العيون على ماوراء الستر.حين تنجلي الحقائق الكبرى بعد رياضة شاقة.افعى الابيض ترقّص حراشفها على الجسد والرأس. معلنة حضورها:دورة الفناء منذ الخليقة. وقد تجلى فيها كل ماقرأناه وبجلّناه ونسيناه.هذا الفناء المنتظر نتخيله على شكل صفحة بيضاء تشبه غيبوبة. او موتا او فراغا.تتحول فيه الكائنات من بشر وحجر وحيوان وشجر. الى ضوء. فقط. يسري من نجم الى نجم. ومن كوكب الى آخر.من قمر الى قمر. على مشارف الكون الشاسع. الذي يرتجف فيه الانسان من الخوف والوحشة والجهل.كانت الصرخة ذروة عويل طويل لذئب كان يعيش في رأس رجل يمسك انيوبة اللون. ويتمختر على نسيج القماش الابيض.حوله الامشاط الملونة مثبتة على الجدران والارائك بنقوشها وزخارفها. والموقد في زاوية المرسم يتصاعد لهبه الى الاعلى. وفي الرفوف صُفّت الزجاجات الفارغة. التي طالما نقلته الى سماوات الحلم واستفزت فيه رغبة الرسم.ومن الاعلى يسقط النور ضفائر مجدولة على الكرستالات والجرائد ونَفَل القهوة وقضبان الخشب التي ستصبح اطارات لحيوات مفترضة. يتقافزالذئب على الجدران. والأرائك والقماش وموقد النار وارضية المرسم. يثب من نافذة الى برواز ومن برواز الى كتاب. ولايترك الغرفة ابدا.

شاكر الأنباري

تشكيل شامي

غاب في الشتاء ، وسيحيا في الربيع . ما عليها سوى لمّ اجزائه ، من الالوان ، والماء ، والابواب المغلقة ، والشرفات المعلقة ، والهواء الحامل لرائحة الخباز والياسمين وهو يدرج على عقدها وقرطيها ، اصابعها ورموشها المكحلة ، المرتفعة الى الاعلى بجرة لطيفة ، تجعل عينيها مثل لوزتين ناضجتين . انا الاريكة والكرسي ، اسد النحاس وناقورة الماء ، خابية الفخار وعتبة الدار ، كان يقول لها ، مرآتك التي ترين فيها شفتيك وزينة شعرك ، سرتك الشاقة من وراء الحرير وحاجبيك الشبيهين بحاقتي جبل في غروب كئيب . يدخلني الصيف الى مخدعك ويخرجني الشتاء الى ازقتك ، امر كل سنة على قلبك ، ثم يتخطفني الخواء والليلة المظلمة . ايتها المرأة المتضوعة برائحة الذرة ، المعطرة باليانسون والاعشاب ، ابحثي عني في هذا البيت ، لانني فيه ولدت وفيه متّ ومنه سأخرج . تذكرت كلماتها بوضوح ، قالت له انا غبار ، سافترش تخاريمك ومزهرياتك وابوابك المكفتة بالصدف ، يحرتك الصدورة وطبعات اقدامك على المرمر ، لكنني محكومة بالضياع مثلك ، يتتبعك من باب الى باب ومن اريكة الى اخرى ، الى ان يدلني احد عليك ، سنخرج معا ثم نسير تحت المطر ، في شوارع المدينة العتيقة .

AL MADA BAGHDAD
2295
PRICE:4$